

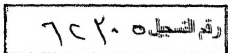
فوق سطح القمر

جولدين

محمد عبد الحليم عبد الله



مطبعة خان بكنته لهر



# جولیت ... فوق سطح القمر

تأليف

محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل ممدني - الجيزة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية



حصاد ليلة

هذه الليلة بالنسبة للملك شهريار لم تكن مثل كل الليالي . كان كل شيء فيها خافت السحر . بخور جزر الهند وحرير مدن الصين والقناديل الفارسية .. يعنى الروائح والملابس والنور .. كل هذا كان خافت السحر .

لم يكن الملك سعيدا بطبيعة الحال ، لأنه بدأ يكشف الخدعة المشهورة . بدأ يكشف أن شهر زاد ( تحكى ) لتنفذ نفسها ، وأنه على الرغم مما يتقلده من وقار بدأ يهتز من أعماقه ، بدأ يتداعى . فالروائح والملابس والنور فقدت لغتها . أصبحت شيئا أخرس ولو أنها حول أجمل وألين فتاة عرفها التاريخ . ذلك لأن شهر زاد - نفسها - مريضة .

وعلى الرغم من أن الملك بدأ يكشف الخدعة فإنه لم يملك حيالها شيئا . فهو الليلة يعلم أن شهر زاد ( تحكى ) من أجل نفسها ... ولكن الملك لم يملك أن يحول بين حبها وبين قلبه !! .

وإذا كانت أولى لمسات الحب لا يمكن أن تعنى إلا السعادة فإنها أيضا يمكن أن تعنى كل معاني الخوف .. الخوف الذى عرفته القلوب من عصر الغابة حتى اليوم .

أحس الملك أنه أقوى من أن يملكه كائن آخر ... وتهدد ... إنه ينظر إلى الحب على أنه عطاء !! .. منحة !! ..

فهو حين يشعر بميل نحو أى فتاة فالعطاء هنا هو أن يقول لها: تعالى .

هذا هو الأمر فى نظره .. أما إذا أصبح الحب إنسانين فى إنسان فهذا هو ما يرفضه. هذا شىء يتنافى مع نظرتة إلى نفسه من الداخل . فهو يرى من داخله عرشا وصولجانا والأشياء الأخرى التى تتبع هذا . أما الآن فهناك كارثة على وشك الوقوع . فبخور جزر الهند وحرير الصين والقناديل الفارسية - لم تعد سوى قشرة لهذه الثمرة الإنسانية العظيمة شهر زاد حتى جعل يتصورها - وهى تحكى منهوكة الصوت - أنها فى أسمال إحدى بنات الطريق وعلى أسنانها اللؤلؤيسة بقايا حضرات أكلتها . ثم سأل نفسه : هل يقل وزنها فى نفسه إذا ما أخذت تحكى ١٢.

وكان الجواب : لا . أنها هى هى . فارتعش . اجتاحه الخوف . أحس أن لها صولجانا فى داخلها أيضا وأن صولجانها أعظم من صولجانه . لأنه غير يحتاج إلى الحرير ولا القناديل ولا البخور .

وهنا عاوده الخوف مع شىء يكاد أن يكون غضبا . فهو الذى استسلم للخديعة ، لماذا تركها تحكى ؟! لماذا لم يسلمها للسيف بعد أول ليلة كما كانت عادتة ؟ هل هناك أناس يستعصون على الموت ( وثقيل أنها ماتت وأكمل السؤال ) حتى ولو ماتوا ١٢

عندئذ هز الملك رأسه إيجابا فليس قتلها بعد ما فعلت معه قادرا على إقصائها عن الحياة . بل إن الأمر قد تجاوز حده الآن . تجاوزه جدا . ها هى ذى تأمره - بلا أمر - وتقول له : تعال . وانعكست الآية وأصبحت هى صاحبة الإشارة الأولى .

كانت شهر زاد توالى حديثها الحلو وهى غير قادرة على ما تفعل .  
لكنها غالبت مرضها فقد كانت ترى المرض على هذه الفترة من حياتها  
أخف ما فى الحياة . كما كانت ترى الموت بالنسبة لها ليس شيئا شخصيا  
والعكس صحيح . فانتصارها على الملك حياة ليست شخصية ولكنها حياة  
كل اللاتى من قبلها وكل اللاتى ستكتب لهن النجاة .

لذلك فقد كان الملك يحس بالآلام مرضها أكثر من إحساسها هى .  
كان على وشك أن يتأوه عدة مرات نيابة عنها لولا أنه خجل .

وعلى كل حال فقد مضت الليلة . وأوى الملك إلى مخدعه المنفر لكنه لم  
ينم . ظل ساهرا يفكر فى الصولجان الذى بداخله . إنه على وشك أن تمتد  
إليه يدها . تلك الصغيرة البيضاء ذات الأصابع المشوقة . كأنما خلقت  
لتحسن التسلل إلى خلجات النفوس المجهولة .

وشعر الملك وهو مؤرق كأنه يرفع تلك اليد إلى شفثيه على الرغم  
من كل شيء . فاستسلم وهلة للخضوع ولم يلبث أن أفاق وعادت إليه  
طبيعته ونظراته إلى الحب على أنه عطاء ومنحة . لكنه عاد يوازن بين  
الحالتين . أخذ شخصية رجل ثالث يحكم بين اثنين فما لبث أن اكتشف  
أن لحظة ( الخضوع ) التى لمسها هى أعمق لحظات الشعور فى حياته  
كإنسان .

\*\*\*

على أنه استيقظ حزينا فى الصباح الباكر . فشعر أنه اليوم أشد ما  
يكون حاجة إلى أن يرى وجهها مع بشائر هذا الصباح الذى تسلل نوره  
البنفسجى من الستائر الملكية .



فغادر فراشه ومشى إليها . دخل فى صمت . شعر أنه داخل إلى  
محراب كان يصلى صلاتهم . ثم تقدم إلى فراشها . فرأى تلك التى  
تومض كل ليلة كأنها نجمة الزهرة ، رآها صغيرة منطفئة ليس حولها  
إلا الستائر . فلمس خلعها فإذا بها حمومة .. ولم تستيقظ . ولم يحس .  
وخرج .

\*\*\*\*

وعندما دخل عليه أحد رجال القصر فى منتصف النهار أحس فجأة  
بأن شيئاً قد زاد عليه . كما نحس نحن بثقل المعطف لحظة نرتدية فوق  
الملابس . أما هذا الذى زاد عليه فهو سطوة الصولجان وقد نسى شهر  
زاد . نسيها وإن كانت فى أعماق أعماقه .  
وكان ذلك الداخل مهموماً ناسحاً فى وقت واحد . ومن الممكن  
أن تتصور المبتسم المهموم .

فلما وصل الرجل إلى الملك انحنى بين يديه ثم سعى نحوه حتى إذا ما  
قرب من أذنه همس بثلاث كلمات ثم ابتعد . لكن ملامح الملك  
جمدت ثم تصلبت ثم اتخذت هيئة الحزانى لوهلة قصيرة ، ثم نطق الملك  
سائلاً الرجل :

- هل هذا صحيح ؟

فأوما براسه دلالة الإيجاب ولم يرد ، ثم ما لبث أن هتف قائلاً للرجل :  
- انصرف .. واتركنى وحدى .

ولما تركه وحده أخذ يذرع الحجرة فى كل اتجاه . ويقلب يديه  
ويضحك .

وبمرور ساعة من الزمن أصبح الأمر عاديا جدا وأصبح الخير عاديا جدا .  
وفى آخر النهار دخل الرجل نفسه على الملك وهو فى حالة من الممكن  
أن تكون حسنة . لكن وجه الرجل كان يحمل الخوف . بل الهلع  
والذعر . وكان يتقدم من الملك وانحنى وتعثر حتى قال له الملك بأعلى  
صوت :

- تعال أيها الرغد وقل ما عندك !

فتقدم الرجل وهمس فى أذن الملك بثلاث كلمات ثم ابتعد . لكن  
ملاحظ الملك جمدت ثم تصلبت ثم أخذت هيئة الحزانى لوهلة قصيرة ثم  
نطق الملك سائلا الرجل :

- هل هذا صحيح ؟

فأوما برأسه أى نعم ولم يزد . ثم ما لبث أن هتف قائلا للرجل :  
- انصرف وأتركنى وحدى .

\*\*\*

كان يذهب فى الحجرة ويحيى ويتحسس عنقه وهو واجم . ثم أخذ  
يتحدث بصوت ربما كان مسموعا وربما كان غير مسموع : « فى يوم  
واحد يجرى كل هذا ؟ فى أول النهار مات مهرج القصر وفى آخر  
النهار مات السيف . أليس هذا تحديدا من القدر  
( وتأوه ) ثم .. شهر زاد مريضة . ما هذا ؟ ضحكى وعقابى وحبى ؟  
( وتأوهت ) لكن ليس شىء من هذا قادرا على أن يغلبنى فأنا شهريار  
الذى قهر أقوى قوة فى العالم » الحب !! » .

ثم نادى الملك .



إن المريضة ليست بخير .. وليست بشر ....



أمر بمحشد كل أطباء المملكة لإنقاذ حياة شهر زاد التى كان من المفروض أن يتسلمها السياف من زمن . ثم أمر بإحضار أشهر رجلين فى المملكة يصلح أحدهما مهرجا ويصلح الثانى سيفا . وانتهدت الأوامر .

وفى الصباح . كان الأطباء لا يزالون فى شئدع شهر زاد والمملك بانتظار الرجلين .

دخلا عليه . وكان مهموما . وكان معهما الرجل المعهود . رآهما الملك وعرف ملامح المهرج ولامح السياف وتركهما برهة ، لكنها فى الواقع كانت طويلة جدا ، ألقى الرعب فى قلوبهما . لكن الملك كان مشغول البال بما جرى فى شئدع شهر زاد . وأخيرا صدر أمره .

قال للأول .

- أنت مهرج القصر .

وقال للثانى :

- وانت السياف .

وانحنى الرجلان بالشكر والطاعة وخرجا . ولم تمض فزة طويلة حتى دخل عليه الرجل المعهود . كان الارتباك والقلق باديين عليه . وأخذ يتقدم نحو أذنه يهمس له .

فصرخ الملك :

- لا أريد همسا . الهمس كله شر . أصرخ بما عندك كما أصرخ أنا الآن .

فصرخ الرجل قائلا :

- لقد حدث يا مولاي خطأ بسيط لكنه .. آ . صواب أيضا ، فقد أمرتم بأن يكون كل من الرجلين مكانا للآخر .. لعل .. آ .. فقال الملك :

- أهذا كل ما فى الموضوع ؟ لا تحزن نخذ أمرا جديدا : « يثبت كل من الرجلين فى وظيفته » .  
ثم استطرد :

- ليس هذا هو المهم . المهم الآن أخبار شهر زاد .  
عندئذ دخل عليه كبير الأطباء عمرا . رجل منجنى الظهر كأنه حمل جيلين على كاهله وقال للملك :  
- إن المريضة ليست بخير . وليست بشر . كل شىء جائز . فابتهل إلى الله .

وانصرف الطبيب وأطرق الملك دامع العينين . وكان يقول فى نفسه : « من الممكن أن يصلح الخطأ الذى وقع بشأن المهرج والسياف ، لكن هل من الممكن أن أصلح أخطاء القلوب ؟ ! » .

القلنسوة الصَّغيرة

قلنسوة من الصوف نسجتها يد الأم فى الأشهر الأخيرة السعيدة قبل أن تضع مولودها الأول . والأم من طبعها أن تضع قلبها فى كل شىء تصنعه لابنها حتى قبل أن تراه العين ... حتى ولو كان غائبا .

وكان أب الشاب يرقب زوجته وهى تقوم بهذا العمل وهو .. إما متأمل أو باسم أو متحدث معها أو مستغرق فى الضحك . كان ينظر إلى إبرها وهى تعمل باعتزازا وكأنها تصنع خيوط الحياة ويقول لها : - الآن رأيت كيف كانت أمى تخطى ملابسى قبل أن أرى نور الدنيا . ولم يبق لى إلا أن أرى يوم تضعين هذه القنسوة على رأس المولود لأرى بريق عينى أمى يوم البستنى أول قطعة من الثياب .

بعد ذلك أطرق الشاب يفكر : « من أجل خاطر هؤلاء الأبناء نصنع أشياء لا تخصى منها الصعب ومنها السهل . والصعب من أجلهم يسهل . والسهل من أجلهم يمر مثل لمس النسيم » .

وتأوه لأنه تذكر هؤلاء الذين يقومون بأصعب الصعب من أجل الأبناء ... أو ... من أجل الحاضرين منهم والذين لم يولدوا بعد مثل ابنه وابنته . هذه التى تصنع لها أمها قلنسوة من الصوف .

لأنهم رجال لا ينامون ولا يجف العرق عن أجسامهم . أمامه أعداؤه وخلف ظهره أحبابه . والزمن عندهم لا قيمة له وكذلك العمر إلا بمقدار ما يحققونه من انتصار .



ثم .. رفع الشاب رأسه من إطراره وقال لزوجته . تصنعين قلنسوة لطفل ؟ .. هذا جميل .. هذا الطفل الذى يحتاج رأسه لقلنسوة محتاج لشيء أهم . محتاج إلى مكان تحت الشمس . إلى رقعة كريمة فى أرض وطن عزيز . هذه الرقعة تحوطها يد الأب ويد الأم . الاثنان معا .. ريثان تخفقان فى الصدر .

آه .. كل ما أرجوه منك أن تسرعى جدا فى إتمام هذه القلنسوة.

\*\*\*

باتت الزوجة الشابة تفكر فى كل ما قاله زوجها الشاب . نيرة جديدة تجرى فى كلماته .. آه إنها ليست فى كلماته وحده . بل هى فى كلمات كل الناس . ذلك هو أخوها الشاب الذى كتب لها رسالة بيده اليسرى لأن يده اليمنى كان فيها جرح خفيف . وقال لها : إننا نعمل بكل ما فىنا وما نملك حتى ولو كان شعر الرأس . وقال لها : هل كنت تتصورين يا أختى أننى أقدر أن أكتب بيدي اليسرى مثل هذا الخط ؟ أنت ترين الآن أن كل من يحاول يحظى بالنجاح . جرحت أصبعى فى عملية صامتة من عمليات العبور إلى ضفتنا الشرقية : وإن جاز أن أسمي نفسي بطلا - ولا تؤاخذينى - فماذا يحدث إن جرحت أصبع بطل ؟ كنت ليلتها أتذكر وأنا صغير كيف كنت أخاف من الليل لكن ليلة العبور عرفت وأنا كبير كيف أخاف الليل منا .. آه أيتها الشقيقة الغالية . كل شيء يحاول يكسب بالمحاولة حتى ما نفلته ثقيلًا .

\*\*\*\*\*

وبأت الشاب على هذه الذكريات . نعم بأت . وأصبح الصباح  
وخرج زوجها الشاب إلى عمله كالمعتاد . لا تدري لماذا قضت يومها  
تسمع بعض الأغاني من الراديو فى المطبخ وتدنا . مع بعضها . ثم تذكر  
فجأة أن الطفل الذى تحمله يطلب منها شيئا . يطلب منها مكانا تحت  
الشمس لا قلنسوة صغيرة من الصوف فقط . وعندئذ عادت إليها  
ذكريات ما قاله زوجها بالأمس . وبينما هى فى هذه الحال دق جرس  
الباب فى ميعاد مبكر فإذا بزوجها عائد من عمله وعلى وجهه علامات  
الإهتمام .. عندئذ خمنت الزوجة كل شيء وما لبث الزوج أن قال لها :  
- أنا ذاهب إلى هناك ..

فردت فى يقين :

- أنا أعلم ذلك . وهذا المنطق تقوله لى أشياء كثيرة . منها حقنا المقاس .  
ومنها ضريبة الشباب . ومنها أن نصنع للمولود مكانا تحت الشمس .  
فقال :

- إنى أطلب منك هدية أصحبها معى فى سفرى .

قالت :

- اطلب .

فقال :

- آخذ معى تلك القلنسوة الصغيرة التى صنعتها للمولود . المولود  
الذى لم تره عيوننا .

فردت مداعبة :

- خذها .. حل تصلح أن تكون خوذة من الفولاذ !؟

\*\*\*

وبعد أسبوعين أو أكثر تلقت الزوجة خطابا من زوجها الشاب .  
كان يبدو عليه فى الكتابة أنه مستعجل لكن بدا عليه أيضا أنه يريد  
أن يقول لها شيئا . أن يقول أنه راض عن نفسه . ولم يزد فى كلامه  
كثيرا .

وكان فى الحقيقة راضيا عن نفسه . وحقيقة كذلك أنه شعر بأن فى  
الأفق الشرقى أمامه عليه أشياء يجب أن تزول . الأفق الشرقى حيث يرى  
الشمس وهى تشرق فيحس أنه مطالب بأن يجعل لابنه مكانا تحت هذه  
الشمس على أرض وطنه . حتى ولو كان هذا الابن لم يولد بعد .  
ولذلك كان يحس أن كل جسم غريب أمامه إن هو إلا غصة فى حلقه .  
شعر بالظلم لو أن الماء قريب منه . فعرف أن الإنسان قد يظلم لأشياء  
غير الماء .

وكان فى الليل حين يسود الجبهة هدوء أبكم ، إن نطق صرخ ، وإن  
استمر مزق العصب - فى الليل فى هذه الفترات كان يُخيل  
إليه أنه يسمع يكاء مولود جديد لا يعرف من لغة الناس إلا البكاء  
أو الصمت أو الابتسام . ومن خلال هذا الصوت كان يستمد كل قوة  
عضلية أو نفسية ويشعر أن الحياة الإنسانية ليست إلا حياة شخص  
تصب فى حياة شخص آخر ، وليست إلا خطوة إنسان تتصل بخطوة  
إنسان ....

وفى إحدى الليالى كان هو بين العابرين إلى الضفة الشرقية . وكان  
يحمل معه أشياء خفيفة . أسلحة ناطقة وأسلحة صامتة ، وذخيرة وماء .  
وكان يزحف أحيانا ويمشى منحنيا أحيانا . كان يحس تماما أنه يفتش  
عن شيء يملكه . عن مهد لطفل . عن حفرة ليزرع فيها شجرة . عن

مكان يصلح لبناء بيت . عن مرتفع يدفع فيه علمنا ذا الألوان الثلاثة .  
عن أشياء كثيرة كلها غال .

وكان العرق يتصبب منه . كان الجو شديد الحرارة والليل حالك  
الإظلام . والنجوم تطل على الأبطال . وكلما تصبب عرقه أخرج ما  
يمسحه به . أخرج القلنسوة الصغيرة التي صنعتها زوجته لمولوده المنتظر .  
ومسح بها عرقا كثيرا . وكانت كل لمسة منها لوجهه تهبه روحا عظيما .  
كان ابنه في يده . وكأنه عبر ليحلى له الطريق ويرد له حقه المقدس .  
وفي الظلام .. كان .. كأنه يرى ابتسامة الطفولة العذبة تفرق على  
وجهه الخلو .



كان يخيّل إليه أنه يسمع بكاء مولود جديد .



## البرج المائل

ها هو ذا يبدو فى وقفته جد مبتس ومخزون . إحدى خصالات شعره الناعم الفاحم تتدلى على جبينه الذى تيرق على شحوبه حبات كثيرة من العرق . أما خداه فكأن عليهما أثر اللطيمات وإن لم يحدث شىء من هذا .

صدره يعلو ويهبط ولا يرى فى الحجرة التى يقف فيها سوى شىء واحد هو .. حذاؤه . عيناه مركزتان على حذاءه لا تستطيعان فكাকা . ويده تحاول أن تبحث عن اللنديل ليجفف عرقه لكنه - بعد أن يجر كهها - لا يلبث إلا أن يعيدها إلى مكانها . فتصير مدلاة كغصن ذابل .

ليس وحده فى الحجرة . يقف الآن أمام مكتب يجلس عليه رجل أشيب، أسنانه منضودة وفى مثل صفاء اللؤلؤ مما يؤكد أنها أسنان صناعية . وذلك الجالس على المكتب لا يتكلم . لأنه بانتظار أن يقول الشاب شيئا .. وهو إذ ينتظر الكلام من الشاب يعلم أنه يطلب عبثا .. شيئا لا فائدة فيه . لكنه مكلف من ضميره وربما من القانون أن يجعله ينطق .

الشاب يبدو وكأنه فقد النطق . وطاقته العصبية نفدت حتى آخرها كأنه منزوف . وبعد فترة من الوقت لاحظ الرجل الجالس على المكتب والقلم فى يده - لاحظ أن أنفاس الشاب بدأت تنتظم بشكل غريب على هيئة ما يحدث لطفل أنهكه البكاء وسكت فبدأ النعاس يراوده .

عندئذ أمره الرجل بالجلوس . وكان الكرسي القريب من المكتب من نوع ( الفتوى ) منخفض الوسادة . فلما جلس عليه الشاب - وكان



قصير القامة - أحس أنه نصف راقد . واستسلم لشيء ليس نوما ولا حلما ولا ذكريات . استسلم لإحساس حاد بما عاناه أكد له أن كثيرا من الأحداث يمر بمقياس الزمن فقط لكن هو بمقياس الحقيقة موجود فى ظلمات الحزن وإن كان جسم الحزن يبرق على الرمال تحت أشعة الشمس . هكذا نحن ..



هذه الأشهر الأخيرة التى مرت به قبل هذا الموقف كانت غريبة . هو يذكرها الآن تماما وهو مسبل العينين كأنما يراها من خلف أجفانه . يذكر كيف كان يعود فى وقت متأخر من الليل ويدير المفتاح فى باب الشقة .. أبوه وأمه نائمان تماما ، والعشاء مجهز على منضدة فى حجرة نومه . تقع إلى جوار مكتبه الجميل الذى نضدت عليه الكتب .. كتبه الجامعية . ذات الأغلفة التى منحها لها وكلها من اللون الأخضر فى أناقة حية وجمال يحبب فى العلم .

وبعد العشاء يدخن سيجارة وهو مستلق فى الفراش بإهمال . زجاج النافذة مغفل والستارة تتراقص عليه بهبط ، ربما من رياح الشتاء التى تنفذ من أى منفذ . وحلقات الدخان ترسم فى الحجرة شخصا خيالية بعضها لفتيات وبعضها لشبان يعرفهم ويعرفهن . هذا صوت رنين التليفون يقطع عليه أحلامه الحادة . والرجل الجالس على المكتب يرد بصوت شديد الهدوء . عباراته مختصرة .. جنون .. ربما خيل إليه أن هذا الشاب الذى كان على وشك الإغماء قد استرخت أعصابه فتركه يستريح . ما أسهل وما أصعب أن نتخيل أنفسنا أو أبناءنا فى موقف

عصيب وقع فيه غيرنا . لكن الذى يساعده خياله يعرف القيمة الحقّة التى يؤديها الخيال لإنقاذ غريق .. ساعة تمر بالنهر فتخلع ثيابك فجأة وتثب فى الماء فى برد الشتاء لتتشغل رجلا لا تعرفه بل وربما كان عاجزا عن الاستغاثة . فما أسهل أو أصعب أن نتخيل أنفسنا مكان غيرنا . لكن هذا إذا حدث تم التعاطف الإنسانى أو .. صلة القربى الصامتة المجهولة بين إنسان وإنسان .

من أجل هذا كان الرجل الجالس على المكتب يخافت بصوته . كأنه يخاف أن يزعج الشاب . مع أن الشاب كان فى جملة لا تقل عن جملة (المولد) فهو الآن يرى الأشباح التى رسمها دخان السيجارة امرأة عريانة ترقص وتصرخ . أسنانها غريبة . أحس - إذ تصور أنه قبلها - يميل إلى القىء . سنة ذهبية وسنة بلاتينية والثالثة أكل السوس نصفها .

وبعد قليل أحس الشاب أن الهواء تدفق من النافذة فاستفاق قليلا . وحملق فى حذائه . خيل إليه أنه ملفق . وكاد ينجعل .. إذ تصور أن فردة منه سوداء وأن الأخرى بنية . وكان يتأكد لعجلته وقت الخروج إلى الامتحان لبس فردة وفردة . ثم شعر يميل شديد إلى أن يخلق فى الرجل الجالس على المكتب . وأسبل أجفانه فبدت له فى بقية الأحداث حادة جدا .

\*\*\*

من خلال النافذة كان يرى زميله ماهر . يراه ساهرا والزجاج مفتوح على الرغم من شدة البرد . نعم . حركته الدائبة فى الحجرة

وحركة يديه تدل على أنه يعمل ويتفهم والليل متقدم الخطرات ساكن ..  
ميت .. لكن العمل الحى يجعل الليل أنحصب ألف مرة من نهار  
بطالة .

ومن بين حلقات الدخان وجسم المرأة المهولة يدب فى جسمه خدر  
خبث . ليس خدر جهد ولا مرض ولا عقار بل هو خدر الاستسلام  
لفكرة إسريطية قديمة . أن يعاقب اللص لأنه ضبط لا لأنه سرق ..  
وعندئذ لاحت لعينيه ورقة الامتحان .

وقهقهة وهو مغمض العينين فانتبه إليه الزجل الجالس على المكتب  
وناداه لكنه إذ رفع إليه أجفانه رأى عينيه المحمرتين ورأى ثقل أجفانه  
فأثر أن يتركه قليلا وعاد فانشغل هو بأشياء أمامه .

وفى هذه اللحظة دق التليفون ورد الجالس على المكتب . كان فى  
هذه المرة بالنسبة لعالم الشاب وأحاسيسة - كان جهورى الصوت .  
جاد جدا . وفى نبرته أمارة رجل الشرطة .

وسرعان ما عمل الخيال الذى سقط الشاب - فى هذه اللحظات -  
فريسة له . إذ انتقل به سريعا إلى مركز شرطة فى الريف . أبوه  
ضابط به . هناك .. حيث يتمتع كل ذى سلطة بحماه واحترام  
مضاعف ، ليس مثل المدينة .. القاهرة حيث تكثر النفائس والشخصيات  
بل وحتى أسواق الملابس القديمة والمتاحف .

بعد أن نجح فى امتحان العام الماضى - بطريقته - وذهب ليقضى  
إجازة الصيف فى الريف وسار ذات أصيل حتى دخل مركز الشرطة ..  
وعند الباب ومن بعد سمع صوت أبيه عاليا حادا . إنه يسمعه الآن وكان

الزمن توقف . هذا أبوه يجأر بأعلى صوته . مفخما حرف الطاء بطريقة شخصية .

ودخل على أبيه ..

كان جالسا وراء الحاجز الخشبي المعروف على مكتبه . وأمامه شاب فى الثلاثين تبدو على وجهه لطيمات الزمن . ملابسه ممزقة وقلنسوته مخروقة .

وعندما دخل الشاب الطالب على والده كانت علامات المراوغة ناطقة على وجه المتهم . كان الضابط يجأر قائلا له :

- اللف والدوران ليس فى صالحك . اعترف بالحقيقة وسأعمل على بنجائك .

وكالعادة المتبعة لم يصدق أحد الطرفين الآخر . فظل الشاب يراوغ مما دعا الضابط إلى أن يجبهه بالحقيقة قائلا :

- حقيقة أن حبل العجل لم يكن فى يدك لكنه كان يسير وأنت خلفه وبصاك الطويلة كنت توجهه . فلما ضبطت أنكرت علاقتك بالموضوع .

فقال الشاب فى تذلل باك وتغاب يغيط :

- واللّه يا سعادة البيه .. وحياة ابنك .. وعينى اللى حيلتى من الدنيا .. إن ما بينى وبين صاحب العجل أى معرفة ولا عداوة . فلماذا أسرقه ؟!

وعندئذ استشاط الضابط غيظا لكنه ضحك ضحكا حقيقيا . فالتهم كان بعين واحدة . والمسروق لم يكن ملكا لشخص وإنما هو من مزرعة حكومية . ثم استطرد الضابط قائلا :

- كم كذبة فى هذه الكلمات التى قلتها ؟!

فعاد الشاب بعد أن رمى بطاقيته على الأرض وهو يبكي - عاد يؤكد  
صدق ما قال ويحلف بعينه .

\*\*\*

دخل رجل يرتدى معطفا أبيض متوسط السن . متجههم الوجه . تعبر  
قسماته عن ضيقه بالمهنة . ثم انحنى بالتحية للرجل الجالس على المكتب  
والقلم في يده ، ثم عاد هذا الداخل فانحنى على الشاب الراقد تقريبا في  
كرسى ( الفتوى ) وما لبث بعد أن ذلك كفيه وفك أزرار قميصه - ما  
لبث أن فاحت من حقيقته المربعة رائحة نوحادر . وانصرف الرجل .  
واستنشق الشاب الهواء عميقا . وتذكر بسرعة . شيئا أخيرا كان يعاوده .  
كان يثقل ذهنه حتى كأنه زجاجة مليئة بالزئبق ولا يدرى من أين عزف  
هذا . ولا يذكر أين قرأه لكن هذه الحادثة التى خالطته فى هذه  
اللحظات التى توقف فيها الزمن كانت أرواح ما دار فى رأسه . بصرف  
النظر عن مغزاها . وبصرف النظر عن نظرية الشاب نفسه إليها فى  
التطبيق .

كان قبل أن يفيق بثوان يسمع أحدا من الناس يحكى له ما يأتى :  
وهو يردد وراءه ما يقول كأنه مكلف بحفظه عن ظهر قلب .

\*\*\*

على إحدى قمم جبل الأولمب ذات السحر والغموض والأساطير  
التقت ثلاث إلهات . كن قد خرجن للهو واللعب وممارسة أشهى ما  
يشتهيها البشر . ألا وهو « الثناء » .

جلسن قلقات يتمايلن . كل منهن ترى روعة جمال وجهها فى مرآة  
وجه الأخريات . وسكرن بالأنوثة . مع أن العنب لا يسكر  
بالنبذ . ثم أخذن يتراقصن ويتضحكن . وكلما انساب فيض من أنوثة  
الإلهات ازداد حنينهن إلى لقاء من يعبر لهن عن أسرار الجمال وهى على  
إحدى قمم الأولمب . ويث القدر البهن بشاب كتب عليه الشقاء دون  
أن يشعر . كتب عليه أن يشقى ويشقى غيره . شاب  
اسمه « باريس » رآته الإلهات الثلاث فضحكن له . واستدرجنه إلى  
مجلسهن . ثم عاد نبذ الأنوثة تعبق رائحته الجبال . فاسترخى . عندئذ  
سألته قائلات :

- أينا أجمل ؟

تخير الشاب وسكت .

عندئذ عرضت عليه إحداهن . ( سلطة الحكم ) وعرضت عليه  
الأخرى ( منبع الحكمة ) وعرضت عليه الثالثة ( الحب ) فتجعل  
« هيلانة » أجهل فتاة فى اليونان تحت حكم قلبه . فقبل وتمت الصفقة  
.. تمت الرشوة .. ثم الغش .. الغش .. الغش .. فشهد مع  
« أفروديت » إلهة الحب .. لكى تعطيه « هيلين » .

\*\*\*\*

كان الشاب يتمتم بهذا قبل أن يفيق مباشرة كأنه يردد وراءه أحد  
ليفحصه . وكان الرجل الجالس على المكب ينصت إليه فى ارتياح .  
وما لبث أن أكمل بينه وبين نفسه : « ولما تمت هذه المأساة ..



و من یردد و راه ما یقول ، کانه مکلف بحفظه عن ظهر قلب





مأساة الغش تبعثها مأساة تاريخية أضخم . فلو أن الشاب « باريس » لم يأخذ « هيلين » الحسنة ثمننا لغشه . لما قامت حرب طروادة .

ولما أصبح كل نساءها أرامل إذ مات كل الرجال بسبب الغش .  
ثم هتف الرجل بالشاب قائلاً له :  
- انهض .

فوقف ينظر إلى حذائه . لم يحول بصره عنه . وبدا كأنه شاب غريب غير هذا الذى كان يحلم كنصف عموم . وبدا للرجل أن ضمير الشاب أصبح ملصقا بحذائه ... فسأل الرجل :

- هل تعرف برج « بيزا » ؟

هز الشاب رأسه ورد بصوت واهن :

- نعم .. المائل . إحدى عجائب الدنيا السبع .

- لماذا بنوه مائلاً ؟

- لا أدري .

سكت الرجل قليلاً ثم قال :

- لأن المهندس رأى ميله أعجوبة .. بين الأشياء أشياء إن  
( اعتدلت ) سقطت .. بقاؤها فى ( اعوجاجها ) وحياتها فى  
( ميلها ) حكمة ..

- ....

- وكذلك أنت . لقد ضبطوك مخبئاً ورقة للغش فى جورتك أثناء  
الإجابة .. هذا سخيف .

- ربما كان من الصالح لك وللناس أن تغفر لك زلة . لكن .. يبدو أنك قادر على التفرقة بين شيئين مهمين فمن الممكن أن أخطيء وأنا متمرد على الخطأ طوال خطيى وإن امتد الزمن . لكن .. أن تجعل للخطأ فلسفة فخطوك إذن لا يحتمل لدقيقة واحده . فالشاب الذى شهد مع آلهة الحب . كان يرى الحب أسمى من الحكمة . ولم يكن قصده المشاركة فى الغش .

أطرق الشاب لا يرد . وكانت شفتاه تهمهمان . وكأنه يردد :  
- إلهات اليونان .. عرفن .. ال .. و برج بيزا بقاؤه فى ( ميله ) .  
وفى هذه اللحظة كتب الرجل على ورقة الطالب كلمة قاسية حرمته من حق الشريف . لكن الأعرب من هذا . أن الطالب رأى الأستاذ الجالس على المكتب يفرغ قلمه من الحبر بعد الذى كتبه ، كأنه شعر أن المداد قد تلوث .

# أذْيَالُ الْعَرُوسِ

( جولييت فوق سطح القمر )

يوم تحققت الأمنية العزيزة للست « أم عزت » لم يكن يقلق بالها شيء إلا - مخزن اللبن - يوم خطرت العروس الريفية بثوبها الطويل الأحمر .. زوجة ابنها الوحيد..وبدا بعض الحمام ينفق بأجنحته حول « نوار » المنديل على رأسها . وفي هذه اللحظة كانت « أم عزت » نزرعد وتغنى أمام الفرن .. والوقت باكر .. واليوم شتوى .. كانت تصنع لهما - رقاقا - للفظور فهما لا يزالان فى الأيام الأولى من الحياة الجديدة .

وكانت « أم عزت » تغنى فى هدوء وتزغرد فى هدوء أشد .. كأن هذه الأشياء كلها لا تزيد على نجوى. وكانت بين حين وحين تمسك بطرف - طرحتها - لتمسح شيئا من الدموع يجرى على خديها بلا إرادة .. كانت تحس برودة الدمع مع أن الدمع ساخن .. لكن توهج نار الفرن الذى أدفأ وجهها جدا جعلها تحس وكأن دموعها باردة ..

وخطرت العروس فى وسط الدار وأخذت شيئا ما ودخلت به إلى حجرتها . وتساقط الحمام حول العروس .. وحاولت الأم التى القت بالتحية لعروسة ابنها الوحيد أن ترى بفضول ماذا أخذت لكنها لم تفلح .. لأن وهج الدائرة الحمراء فى سقف الفرن وحرقة الدخان جعلت عينيها تدمعان .

وعادت الأم تهمهم بالغناء وتضع رفاق الفطور فى وعاء صغير من البوص - وأخذ الحمام الذى كان يتهاوى حول المرأة الجديدة يهدل كأنه يتساءل ..

وكانت الأم فى ذكرى هديل آخر ، ذكرى هديل ابنها يوم شب عن الطوق وكان يعانقها ويناغىها .. لكنها ما لبثت أن طردت هذه الفكرة .. فقد وجدتها سخيفة .. ورفعت صوتها بالغناء كيما تؤكد لنفسها النسيان : « كل امرأة تأخذ رجلا من امرأة » وصرخت بالغناء عندما قالت فى نفسها من جديد : « أخذ الابن أسهل وأخذ الزوج أمر .. الحمد لله » .

وشعرت « أم عزت » بنفحة من الراحة .. وأخذت تنسق الرقاق فى الطبق وأحاطته بكثير من حلوى الأفراح .. ودفعت بذلك كله إلى زوجة ابنها من خلال فتحة باب الحجرة الموارب .

\*\*\*\*\*

وعندما رجعت إلى ساحة الدار كان القرن قد هجعت ناره .. والحمام قد كف عن الهديل .. والدجاج يقرقر فى طلب وجبة الصباح . والبقرة فى الحظيرة تنادى بصوت يشبه الحنين تطلب يد امرأة تحلبها . وعندئذ أحست الأم أن ميلها للغناء قد خف .. بل على العكس شعرت أن هناك ناسا آخرين .. وكائنات أخرى تطلب ما هو حق لها وما هو مفيد .. أكثر من تلك الحجرة التى لا يفتح بابها إلا بعد الظهر كل يوم ومنذ خمسة أيام ..

فهناك فى الحقل .. وزوجها يعمل وحده .. أحست من أجله بألم لا يخلو طبعاً مما تصنعه النفوس من خدائع ، وأحسنت أن الدجاج يتيم .. وأن البقرة لا عائل لها .. وأن اللين فى ضرعها تجبن مع أن ميعاد حلبها لم يتأخر سوى ساعة .

وعندئذ .. نصبت المرأة عودها حتى برز صدرها إلى الأمام . وغلفتها أهمية غير عادية مثل فارس يلبس عدة الحرب .. ومن خلال هذه الأهمية داعب قلبها طيف من الحزن .. وكأنها تقول فى نفسها : « كل شئ لولا يداها ما بنى .. آباء بعصرون العنب ويعرقون ، وأبناء يسكرون بنبيذه ويرقصون » .

وشعرت باشمزاز شديد نحو كل لذة . حتى الديك الهندى الذى كان يمشى فى الدار مرحاً ركلته برجلها وهى متجهة نحو الحظيرة .. وبدا لها عرفه الأحمر بقعة من الدم سوف تسيل على وجهه فقد كانت تخايل الذبول الحمراء التى كانت تجرها العروسة فى ساحة الدار منذ قليل لا تزال ماثلة فى خيلتها .

زوجها فى الحقل يشد حول وسطه حزاماً عريضاً من الصوف الآن وهى .. تشد الآن حول وسطها طرحة قديمة . وتجرى فى ساحة الدار فتقطع وتسقى وتنظر إلى كل طائر ختال بشئ من الضيق . وأخيراً اتجهت نحو البقرة لتحلبها ..

وكانت البقرة تهمهم وهى تأكل وقد أسلمت لها ضرعها .. وأخذت أصابع الأم تعمل لينساب الحليب .. ولسرتفع أمام عينيها فى الوعاء مع موسيقى الحلب المعروفة : « شيش .. شيش ... شيش .. » .

واستسلام الأبقار للحلب له سحر لا يعرفه إلا « الحالبات » .  
شعرت معه الأم بالسيطرة والنشوة بمعنى يشبه ملكية الحب لا الحلب ،  
وعندئذ غمغمت بضحكة وعادتها نفس الفكرة وكأنها تقول : « آباء  
يعصرون العنب ويعرقون ، وأبناء يسكرون بنبيذه ويرقصون » .

وكان باب حجرة العروسين فى مواجهة باب الحظيرة ، وكان فى  
استطاعة الأم أن تلقى نظرها فتراه . وكانت يداها تعملان فى الحلب  
وعيناها تنظران إلى الباب .

كان لا يزال مقفلا . كل شئ يمرح ويمجرى فى الدار إلا هذا  
المكان . فالهدوء خيم عليه .. تمت لو أنه من الزجاج .. لكن .. سألت  
نفسها : ألم تمر بهذه التجربة ١٢ . وحاولت أن تتذكر فوجدتها أغمض  
من يوم ميلادها .. وهى مؤكدة ولت بدليل أنها موجودة .. ولكنها  
لا تذكر يوم ولدت .. وكذلك أضحى أمر زواجها .. هل كان باب  
حجرتها مقفلا هكذا عليها هى والرجل الذى يشد الآن على وسطه  
« شملة » عريضة ويشتغل ١٣ ! هل كان بابها صامتا مطبق الشفتين مثل  
هذا الباب ؟ ..

وهزت رأسها : « ما أظن .. كنا نحن الاثنين مشغولين تماما بم  
يجرى خارج الغرفة .. وبالأصوات التى تنادينى فى دارنا هذه كل  
صباح .. أما هذان الاثنان فقد نسيا » .

وعادتها إحساسها بالأهمية وهى تحمل اللبن إلى مخزن اللبن و  
- المتد - على كفها تمشى به بسرعة وبقايا شباب .. ثم واصلت عملها  
فى الدار حتى توسطت الشمس كبد السماء .. وكانت عندئذ تنظف  
الحظيرة .. سمعت صوت العروسة يحببها .. وكان وجهها يادى الأبهة

كززع سقى حديثا .. نظرت إليها الأم وردت عليها التحية ثم سألتها  
عن ابنها فردت العروسة بسداجة من تنسيه الفرحة حالة الآخرين :

- عزت ١٩.. فى أحلى نومة ..

غمغمت الأم بالضحك ولم تستطع الفتاة ذات الثوب الأحمر السعيد  
أن تفهم خفايا الغمغمة لأن بينها وبين ذلك من العمر ما يوصلها لأن  
تكون فى موضع الأم الكبيرة .. وعندئذ قالت الفتاة :

- ناولينى هذه الفأس يا أمى لأقوم بما ..

فقاطعتها فى حماسة :

- لا .. لا .. أنت عروسة حتى الآن . فكيف تلوئين كفيك بهذا ١٩.

- سيحدث هذا يوما .. فلماذا لا يحدث الآن ؟

فزادت حماسة الأم . وزاد يقين الفتاة ..

لكن الحقيقة كانت خافية عن المرأتين .. كانت الأم فى عملها هذا  
تريد أن تقول بلا كلام للمرأة الطارئة على دارها : « انظرى .. من  
أجل الحناء فى كفك أغمس كفى فى الوحل » . بينما كانت المرأة  
العروس تريد أن تقول بلا كلام : « دعينى أفعل متطوعة ما أفعله يوما  
ما غير مختارة » .

\*\*\*\*

وانقضى النهار ..

لم يكن الشتاء قاسى البرد .. واجتمع الزوجان القديمان والجديدان  
فى حجرة الأم أمام عشاء شتوى جميل .. قوامه حساء ولحم وأنفاسه  
توابل .. ومن خلال الفرن وما فوقه من الماء الدافئ يشع شئ يذللك  
الأطراف .





« عزت ١٢... في أحلى نومة ... »



ثم انتهى العشاء .. وكان الأب وحده هو الذى يحمل عبء الحديث .  
وفجأة سمع صوت البقرة فى الحظيرة . إنها تنادى اليد التى تحلبها .  
وبسرعة خفت المراتان إلى حيث الوعاء الذى سيحلب فيه اللبن .  
وكانت العروس أسرع من ربة الدار القديمة لكن الأم أدركتها بسرعة  
وأمسكت بالوعاء قائلة لها :

- لا .. اتركى ذلك لى .. وفى الدار أعمال كثيرة ..

نظر الرجلان الجالسان على الحصار فى الدفء كل منهما إلى الآخر  
وظلا صامتين يرقبان ماذا سيحدث . لعل واحدة منهما تتخلى للآخرى  
عن هذا التاج . فوعاء اللبن ليس شيئاً عادياً فى الريف .. والسيطرة  
على مخزن اللبن سيادة علياً خصوصاً عند الأسرة الفقيرة .

كل من المراتين تمسك الوعاء من طرف .. شارة السلطة ورمز  
البركة والأمانة والاقتصاد . إن بخلت به الكبرى على الصغرى فمعنى  
ذلك أنها نبذتها . وإن أخذته الصغرى من الكبرى فمعنى ذلك أنها  
أصبحت ولا أحد يحتاج إليها .

كان الرجلان لا يزالان صامتين . والوعاء لا يزال بين المراتين .  
وأخيراً قالت الأم فى صوت صارم :

- قلت لك .. اتركى هذا لى .

ردت العروس فى طاعة لا تخلو من خبث :

- حاضر .. وعلى أنا تنظيف الحظيرة كل صباح ..

لكن الأم أخذت وعاء الحلب وأسهرت كأن أحداً يطاردها . ولم  
تجلس العروس مع الرجلين بل ذهبت إلى حجرتها .

وكان صوت الحلب يأتى إلى الأب والابن فى اتساق حزين بينما  
الأم تمسح على ضرع البقرة وتستدر اللبن وكأنها تملك الدنيا..  
طول هذه الليلة كان الحديث بين العروسين يومئ إلى أن القسمة غير  
عادلة .. يد تغمس فى اللبن ويد تغمس فى الطين ؟ .. هذا  
حرام .. ثم .. إلى متى ١٢ .

لكن هذه المشكلة المعنوية وجدت غذاءها الدسم على الدوام ..  
حتى قال الأب لزوجته ذات ليلة : وبعد هذا العمر كله تغمسين أنت  
يدك فى الطين وتغمس هى يدها فى اللبن ١٢ ما فائدة ما عملناه  
إذن ١٢

وفى الحجرة الأخرى كان الابن يقول لزوجته : وهل ضرع هذه  
البقرة ملك لأمى وحدها ؟ . ماذا يحدث لو أنها مرضت .. ولا أقول  
ماتت لا قدر الله ١٢ .

وردت العروس فى لين وطراوة :

- إذا كان لابد من قسمة العمل فلا يكون إلا ما يريده الكبار ..

- أى . آآآ هيه !!

وانتهى النقاش بهذه الغممة .

\*\*\*\*

لم يشعر أحد من هؤلاء الأربعة بما هو قاطن فى نفسه كما ننسى  
لون ثيابنا .. لم يشعر أحد منهم بهذا الشيء الغريب .. بأن البقرة  
أصبحت خصما للجيل الجديد فى الدار .. وهما على حبهما لها ككائن

يطعم ويحمرث ويدبر نقودا — على هذا الحب — فقد كان خصما .. مثل غلام افترق أبواه .. أو هبت عليه زوبعه خلافهما .  
وساد فى الدار من أجل خزن اللبن فكرة — بنت سفاح — لا يعرف لها أبوان . هى أن كل طرف من الأطراف وقع فريسة الظلم للطرف الآخر ..

على أنه لابد من وقوع حوادث عادية فى مكان ، غير أن الظروف غير العادية تجعل الحوادث العادية غير عادية كذلك .  
ماذا جرى للبقرة ١٢

فى إحدى الليالى أضربت عن أن تدر لبنها . ولم يسع الأم إلا أن تضربها بأقصى عصا .. ووقفت الفتاة على باب الحظيرة تنظر إلى هذا وتتصنع الأسى وكان حمايتها تضرب فلذة كبده هذه الفتاة .  
ودخلت حجرتها ودفنت وجهها فى صدر زوجها وأخذت تهقه :  
« البقرة خاصمت أُمى » .. أما الأب فقد أخذ يسأل عن زوجته عندما دخلت عليه عن مغزى ما حدث وكأنه يسأل عن حادث جاسوسية لا عن حادثة طبيعية .

لكن فى ليلة تالية حدث أن رفست البقرة الأم فقلبتها على ظهرها بوعاء اللبن . وصرخت الأم فهرع إليها من بالدار . وهم ثلاثة .. معروفون ..

أما الأب فكان غاضبا يسب ويلعن .. العيشة .. والدنيا .. وحكم الزمن .. وقاد زوجته إلى خارج الحظيرة وفحصها بسرعة تحت نور مصباح حملته العروس .. وكانت لائذة بالصمت هى وزوجها . مخافة

أن يقال ما لا يعجب . فأصبح الصمت شماعة .. وفعل الليل فى مثل  
هذا الحادث ما يفعله الليل دائما .. حتى أصبح فى الغد .. مشكلة ..

\*\*\*\*

أضربت الأم عن حلب البقرة فى الصباح لأن الحادثة أصبحت فى  
رأبها أغمض من أن تفهم .. فلم يحدث مثل هذا من قبل . وأضحت  
البقرة فى نظر الجميع كائنا غريبا قادرا على التحيز وسماع الهمس  
والوشاية والميل والهوى ..  
ودخلت المرأة الجديدة لتحلب ..

وجلست الأم خارج الحظيرة من بعيد وهى تتمنى أن يحدث للفتاة  
أضعاف ما حدث لها . لكن . نفس الحيوان استكانت للفتاة وسمعت  
الأم فى الخارج صوت الحلب .. - شيش .. شيش .. شيش - فكاد  
جنونها يجن . وانسريت خارجة من الدار بدعوى أنها ذاهبة تعزى .  
ودخلت الفتاة فى صباح هذا اليوم الحرم المقدس .. دخلت خزن اللبن .  
وكان طبيعيا أن تحاول الأم التجربة بعد أيام . لكنها خافت من شيء  
ليس من المؤكد أن يقع لكن وقوعه كان مرعبا لها . هو أن تمتنع البقرة  
عن الدر .. لها .

ولن تتبادل المراتان العمل . لن تضع الأم يدها فى طين الحظيرة .  
فحملت الفتاة العملين . ولم يبق للأم إلا أن تثرثر وتشكو . وكان لا بد  
للناس من أن يصدقوها « نعصر النبيذ ونعرق » وهم يسكرون  
ويرقصون ... هذا ظلم .. » .

وحاولت الأم عندما مرضت منذ شهرين ، حاولت أن تذكر وهي مريضة أنه كان عليها أن تتخلى عن أعمال كثيرة وأن تصفق لزوجة ابنها وهي تعملها .

واستطاعت أن ترى صورة نفسها وهي تنكر على العروسة ثوبها الفرحان .. وعليّ الديك الهندي مرجه .. وعلى الحمام فى مسكنه فى الدار أن يخفق بمناحيه حول الفتاة .. وعندئذ أدركت أنها كانت تقاوم انسحاب الشباب أو شروق الشمس أو سقوط المطر .

لكن الغريب أنها لم تدخل الحظيرة على البقرة . كأنما أعتبرتها سرا للخيانة أو نقطة رديئة للتحويل .

وذات صباح دخل عليها ابنها من الحقل فى حالة ارتباك ، فضربت الأم صدرها وسألته عن والده .. ماذا جرى له ؟!

فقال الابن بضموت متهدج :

- لا .. لا تخافى يا أمى .. أبى بخير .. لكن .. فقط . البقرة ..

أنقذناها بالسكين ..

وأطرق . وشبهت الأم .. حزنت بلا شك .. لكن .. من خلال وجع الحزين كانت تسمع تنهيدة ارتياح كأن خصما قد غاب .. وكأن خصمها الثانى لن يجد ميدانا للصراع .

وذابت دموعها تتدارك .. لكن الابن مسح لها دمعها بمنديل كان مبللا بدموع عينيه .





سَأَعُودُ ..

حقله الصغير المربع يقع على ناصية الطريق تحفه ترعتان ، إن غاب من إحدیهما الماء لم یغب من الأخرى . وفى هذا الحقل الخضرافات طول النهار . صاحبه فلاح صغیر لا یکشف عن الغناء طول النهار . وفى ساعات الظهيرة أيام الصيف یلوذ بالکوخ الذى بنته زوجته بیديها عمهارة منقطعة النظیر وأنشأت له سقفا من الغاب مغطى بالطین المخلوط ، وجعلت له فى کل حائط نافذة صغیرة یرى الکوخ منها الشمس ویرى صاحب الکوخ من خلالها رقعة الحقل فى أى وقت من النهار .

أما فى أوائل اللیل فکل شیء یسکن ودلائل الاسترخاء والراحة تبدو على المکان ، والکلب یرقد قرب أحد الجدران یغفو ویصحو وینبیح لكنه موقن بغریزته أن لیس هناك خطر یتهدد الحقل .

وکل ما تشتهیه نفسك من خضرافات الموسم من الممكن أن تجده هنا ، وفى وسطه بعض شجیرات من الفواکه منثورة بطريقة لا یضبطها نظام ، وعلى حافة الحقل نباتات طیبة الرائحة یغلب علیها النعناع والریحان . وعلى مقربة من الکوخ عش صغیر یرقد فیہ البط «البکینسى» بعد غروب الشمس على أنه یظل طول النهار ساجدا فى التربة .

وقد تفوح من هذا الکوخ رائحة شیء یقلی أو یطبخ أو یحمر ، وهو لذلك ولجمعه بین مزايا الحقل والمنزل أصبح علامة من علامات الطريق فى القرية فهم مثلا یقولون : « بعد أن تترك کوخ عبد الباقى وتتحده إلى

اليمين تجدد كذا » ، أو يقولون : « حدث ذلك عند كوخ عبد الباقي بعد غروب الشمس أو قبل شروقها » .

والأماكن كالأشخاص ليس من الضروري لكى تشتهر أن تكون غنية ، لكن من الضروري لها وللأشخاص أن تكون ويكونوا أصحاب صفة خاصة ، لأصابعها بصمات ولوجودها نكهة هى السر الطبيعى لكل مخلوق .

أما صاحب الأرض والكوخ فهو شاب لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، من الممكن أن تعتبره نموذجاً كاملاً لفلاح مصرى ، وهو منذ صغره عرف الجدد والتسامح وخفة الروح .

لم يكن له أب ، وكان أبوه صياداً ففرق وتركه فى بطن أمه ، وكم تمنى الأم أن يلحق الجنين بأبيه ، لكنه رأى نور الحياة بعد شهور وسمته أمه عبد الباقي تفاؤلاً له بطول العمر .

ثم انحصرت دنيا الصبى فى شيئين : فى شخص أمه التى كان يحبها أكثر من الدنيا ، وشخص فلاح من القرية عمل عنده أجيراً ليرعى ماشيته ، وكان فى حقيقة الأمر رجلاً طيب السيرة فاعتبره الصبى والداً له فى صمت من يعمل لصالحة ورضاه .

أما أخوه الأكبر فكان مخالفاً له كل الخلاف حتى كادت الأم أن تنسى أن لها ولداً غير هذا الصغير ، حتى أتى اليوم الذى تركته فيه إلى رحاب الله .

وكانت هذه القطعة من الأرض التى يزرعها اليوم عبد الباقي أرضاً مريضة فى بعض أرجائها يقع كبيرة من الملح ، وهى ملك لذلك الرجل الذى كان هذا الفلاح يعمل عنده وهو صبى .

ولما شب عوده فوجئ الناس بأن عبد الباقي تزوج .. كان فى الثامنة عشرة .. وقالوا له : أما كان من الأحسن أن تؤجل هذا حتى تؤدى الخدمة العسكرية ؟ فضحك الشاب طويلا ورد قائلا : أخطأتم فى الحساب ، فأنا وهى سنزرع معا ونأكل معا ونشبع معا ونعيش معا ونموت معا . يعنى أنا سنؤدى الخدمة العسكرية معا . ألم تفهموا غرضى ؟ لن أكون شجاعا إلا إذا تذكرتها وتذكرت الدار والحقل ؟!

ثم حدث أن فوجئ الناس بشيء آخر . راوا الشاب وزوجته يمسكان الفئوس ويحفران حول هذه القطعة الملحة خندقا عميقا يعرف الفلاحون أن معناه مص الأملاح لتصلح الأرض للزراعة .

فأخذوا يتساءلون : مالك ولهذه الأرض يا سيد عبده ؟ ثم عرفوا أنه قد استأجرها من صديقه القديم الذى كان يعمل عنده وهو صبي صغير فضحكوا من هذه الصفقة المغبونة .

غير أن ضحكاتهم عرور الوقت أخذت تتحول إلى ابتسامات إعجاب ، فالأرض مثل الحبيبة نحتاج دائما إلى الرعاية والسقى والإحاح ، حتى إذا ما استجابت جاء دور العطاء وارتاح الحبيب .

ولما أخذت هذه البوادر فى الظهور .. لما بدأت الأرض تعطى بعض الزرع وبنّت الزوجة الكوخ ، استدعى الزوج للجنديّة .

كان معه طفلان .. ولدان صغيران ، فقال للناس قبل سفره وهو يضحك ويشير إلى الأرض والزوجة والأولاد :

- انظروا .. هذه غنائم أخذتها من الدنيا وسأذكرها هناك .

\*\*\*

بينما كان الطفلان يلعبان على مقربة من الكوخ ، وزمرة من البط  
« البكىنى » تخرج من الترة فى طريقها إلى العشة ، ورائحة الباذنجان  
المقلى تفوح من الكوخ ، وأزهار الباذنجان البنفسجية تتألق تحت أشعة  
الشمس الغاربة .. إذا بطفل يهتف :

- عاوز مين ؟

فرد صوت رجل بعد أن قبله :

- كل من هنا ، كل الناس .

ويطل وجه امرأة حسناء متعبه لوحتها شمس الصيف ، تطل من  
إحدى نوافذ الكوخ الصغيرة جدا وتهتف :

- عبده ؟ .. عبد الباقي ؟

وفى صباح اليوم التالى يحس كل أهل القرية بعودة عبد الباقي ،  
فالغناء قد ارتفع فى الحقل ، وهناك أشجار موالح تنتشر فى سرة الأرض ،  
والخندق الذى يمس ملوحة الأرض يعمق بالأيدي . ثم يمر الوقت فتزرع  
فى حوافي الحقل نباتات ذات رائحة عطرة ، أهمها النعناع والريحان .

وتستجيب الأرض لصديقها الذى لا تغفل عنها عيناه فتسخو ، ويبدأ  
دور العطاء بعد دور الأعباء ، وتظهر هذه الأسرة البسيطة لعيون  
القرية وكأنها أغنية حب ، وتمتزج الأشياء .. العمل والغناء  
والزوجان والأطفال والنجاح بعضها ببعض حتى تبدو هذه الرقعة

الصغيرة من الأرض والتي عاث فيها الملح سابقا ، تبادر : كأنها مائة الخيل  
الجنة .

نرى اليوم هذا الشاب ابن الثامنة والعشرين من العمر وهو يغرس  
أشجارا من الكافور بطول أحد أضلاع الحقل ، لأن هذا هو موسم  
تفتح البراعم . غرس ثمانية وعشرين شجرة وقالت زوجته :

- كأن كل شجرة من الأشجار تمثل سنة من عمرك يا عبد الباقي .

فابتسم موافقا . وبدأ المنظر رائعا ، وسأله الناس :

- كيف تغرس الأشجار فى الأرض ، وأنت مستأجرها فقط ؟

فرد قائلا :

- لقد اشتريتها من زمن واسألوا ، أسألوا أصحابها القديس المجل

الطيب .

ولم يمض هذا الحادث حتى وقع شيء جديده تساءل الناس عنه .

قالوا :

- هل استدعيت للجندية حقيقة مرة أخرى يا عبد الباقي ؟

فرد قائلا :

- انظروا . هذه أشجار غرسناها ، وهؤلاء أطفال ولدوا وتربوا ،

وهذه زوجة كأنها رجل ، والأرض التى لم تكن ملهى أصبحت ملكي .



فتقوا أننى بخير وسأعود إليكم بالسلامة





فماذا تريدون بعد ذلك ؟ تعالوا اشربوا معى الليلة شايا قبل أن أسافر !  
تحية وداع .

وفى صباح اليوم الذى قضاه عبد الباقي فى حقله قبل سفره قال  
للزوجة وأكبر الأولاد :

- تعالوا ... اسمعوا هذه الحكاية .. هذه الأشجار قد زرعتها منذ  
أسبوع واحد وهى لا تزال عرضة للجفاف . إنها تحتاجة إلى رعاية  
وعناية ، عددها عدد سنوات عمرى ، قلنا هذا سابقا ، يعنى أن هذا فى  
نظرى هو عمرى الحقيقى .

اسمعوا عليكم أن تسقوها وتسهروا عليها ، فإذا مر عليها الوقت  
بسلام ولم تجف منها شجرة فثقفوا أننى بخير وسأعود إليكم  
بالسلامة .. هذه الأشجار هى .. أنا ! ما دامت بخير هنا فساكون أنا بخير  
هناك ، كل يوم عدوها .. واسقوها .. وحافظوا على خضرتها . هذا  
إذا كنتم تريدون أن أعود إليكم بالسلامة .  
وهذه القبلات لكم وللأشجار التى زرعتها معا .



جُولِييت .. فوق سطح القمر

من كان يظن أننا سنعيش فى كل عصر يا عزيزتى « جوليت » ؟  
من العصر الذى كانوا يحملون فيه المشاعل أمام موكب حاكم  
« فيرونا » حتى هذا العصر ؟ وهذا العصر لم يبعث الدهشة فى  
شخصك ولا شخصى ، لأننا زوجان .. لعلنى غلطى .. فأنا أقصد أن  
أقول : فنحن روح لمست كل قلب من ذلك العهد فى ربوع  
إيطاليا حتى اليوم .. فى كل عهد وأرض . فنحن إذن روح تسكن  
حبات الندى وقطرات الدموع . ضياؤها فى كل لؤلؤة وبريقها فى كل  
عين .

لا السم ولا القبر يا حبيبتى .. كلا ولا شواهد الرخام هى قصتنا .  
بل قصتنا أننا ضربنا الزمن بكفوفنا كما نضرب سطح نهر ساكن  
فتمزقت الصفحة الهادئة واتسعت دائرة الموجه التى خلقتها أيدينا  
فأصبحت الزمن كله . فنحن كما تعرفين نسكن أشياء معنوية علوية .  
نحن نسكن همس القبلات . وحرارة التهذبات . ونحن نسكن أرق الحب  
وتحت أجفان التى نامت على حلم جميل . ونحن نسكن اللحن والأغنية  
ولوحة الفراق وأوراق الربيع وحتى عروق الشجر التى عراها الخريف .  
وربما كان من المختصر أن أقول : إننا نسكن « طبيعة القلب ذاته »  
ولذلك فقد عشنا حتى هذا العصر .

تقولين لى إنك غير معجبة به وتبسمين يا حبيبتى لتحملينى على  
الاستسلام . لقد أصبح لك اليوم حق الكلام وحق الاختيار وصوت فى

صناديق الانتخاب ولآلء كثيرة وإن كانت صناعية . فلماذا لا يعجبك هذا  
العصر ١؟

كانت شوارع « فيرونا » تقفر من المارة بعد غروب الشمس تقريبا ،  
وكان المتبارزون يهددون أمن الناس . واليوم .. نحن فى عصر تنتظر فيه  
المدن غروب الشمس لتنعّم بملذات الليل . لكن المتبارزين ظلوا فى كل  
مكان يهددون أمن الناس ، وما دمنّا قد عشنا كل هذه العصور فعلينا أن  
نعتاد كل شىء كما نعتاد الانتقال من فصل لفصل خلال أيام السنة .  
على أننى أرى أن شيئا واحدا يضايقك . ربما كان معنويا أكثر من  
أى شىء آخر .

أكاد أسمع همسك أيتها الساحرة القديسة . هل لقد سمعته وإن كنت  
بعيدة عنى . همس كثيرة أجراس صغيرة من الفضّة يقول : « لا شىء  
عندى فى الدنيا يساوى ليلة الشرفة » ..

إنها يا عزيزتى تلك الليلة التى كانت ظلال الأسوار فيها ترمى على  
الحديقة والقمر يسطع .. سطع أخيرا على بيتكم . وكان القمر وكأنه  
يلقى بنوره كله على وجهك وحده . كأنما ترك بقية الأشياء فى الظلام ،  
كنا وقتها فى أولى غمرات الحب . والمخاريف تملأ قلب « المرضعة »  
مرضعتك يا حبيبتى . ولما أبديت لى خوفك من أن يكون ما يحدث بيننا  
الآن نزوة وتمر ، نظرت أنا إلى القمر وأقسمت لك عليه بحبى  
فاحتججت « لأنه لا يدوم على حال . وهو فى فلكه يغير صورته كل  
شهر . وإنى أخشى أن يكون حبك مثله متقلبا » .

آه يا عزيزتى جوليت ..

عبرنا كل هذا الزمن ورأينا ذلك القمر .. هو نفسه .. هو ذلك الذى أطل علينا فى أرض « فيرونا » ، رأيناه على مر العصور يرمى بخيوطه البنفسجية على النوافذ والحدائق والحقول ويعصر من أشجار العنب نبيذ المحبين ، وتمنينا ذات ليلة عندما اشتد الصخب والصراع من حولنا - تمنينا أن لو كنا أنا وأنت فيه وحدنا . ثم تخيلنا أن روحنا ستتخذ الطريق إلى ملكوته يوم ثبوت على وسائد الريش ، ولما قضى علينا أن نموت بالسم فى جوف قبر ، لم تستطع هذه الظلمات ولا المأسى أن تكبل خيالنا . فقد كنت معك نغير الفضاء إلى القمر لنكون بعيدا عن الدماء التى سفكوها على قبور الموتى وأبواب الأحياء . وكنت تهمسين لى : أننا سنجد هناك كل شىء على ما يرام . إن لم تكن هناك جنات فهناك أى شىء يرضينا . سنأكل على أرض القمر ما سنجده كما فعل آدم وحواء أول يوم هبطا فيه من الجنة . لم نجد فى الأرض تفاحا ولكنهما عاشا وأنجبا كل هؤلاء من سعداء وتعساء .

وها نحن أولاء أيتها الساحرة القديسة قد عبرنا الزمن وعشنا ، وصعدنا إلى القمر فى نبضات القلوب .. قلوب الذين صعدوا إلى هناك وتحت أجفانهم وهم يخلمون .. وكانت الصورة تملأ عيوننا على الرغم مما قال العلم هو أننا ستره هناك أكثر سحرا . يغرق ليله طول العام فى ذلك النور البنفسجى الذى رأيناه على الأرض ، أما نهاره فهو نهار الجنة . شمس فى مثل متعة الظل . وظله فى مثل متعة الشمس .

كنت أنا وأنت نطل من خفقات قلوب الناس فوق القمر ومن بين  
أهدابهم ، لرى تلك الأرض الجلباء العاجزة عن « الجذب » الكامل ،  
المشوهة البشرية كفتحة البركان .

ونظرت إلى نظرة حزينة كأنك فقدت شيئا يقرب من قيمتى . فقد  
كنت تحبين الكواكب . وتعرفين مرور ساعات الليل التى أرقى فيها من  
أجلى وأرقى فيها من أجلك .. تعرفينها ببعض النجوم .. ما غاب منها  
وما طلع . وقلت لى بأهداب عينيك التى حمل معظمها على أطرافه دمة :  
« هل تصلح أرض هذا الذى أقسمت به على حى ، هل تصلح أرضه  
لأن يسير عليها الطفل العظيم » كيوبيد « إله الحب ؟

آه يا روميو .. إنها غير ممهدة .. جباله مالهة مثل مسامير  
جهنمية !؟ إنه يبدو لعينى كأنه خارج لتوه من حريق .. هذا الكوكب ..  
لكنه قد برد » .

وكان الشبان يذكرون أحبابهم على الأرض ويغنون من خلال  
الكمامات . نعم وكان فيهم شاب جميل الصوت ينتقل بأحماله على  
أرض القمر وبدت الأغنية الأرضية فى هذا الفضاء الذى يصور مرحلة  
من مراحل بدء الخليقة - بدا وكأنه خطأ خطوة نحو الزمن الحاضر ولو  
أن أفواه الكهوف الكالحة لاذت بالصمت لأنها لم تعرف بعد : ما هى  
« اللغة » !؟

شوارع « فيرونا » يا عزيزتى أجمل من هنا .. إن العطر الحقيقى  
لكل مكان هو أنفاس البشر . والحديقة التى يصحب فيها الناس ، هى  
وحدها التى تجعل أزهارها تتضوع ، أما حديقة قصر الأمير ذات

الأزهار النادرة والتي يجوس خلالها وحده بلا أنيس ولا رفيق ولا حبيب ،  
فإن أزهارها تحبس أنفاسها حتى تذبل أو تموت.

وعلى سطح الأرض فضاء قاحل اسمه الصحارى . وعلى سطح  
الأرض أشجار مزدحمة اسمها الغابات . وهما صنوان .. هما رديتان  
لأنهما حالاً بين البشر وبين السكنى فيهما .. ولذلك أنت تسمعين  
الحنين فى كل كلمة تخرج من فم هؤلاء الذين داسوا ودسنا معهم أرض  
هذا الكوكب .

\*\*\*\*

انظرى يا جوليت نحو سماء القمر .. آه .. إننى أراها الآن بعين هذا  
الشاب هناك كرة صافية الزرقة كبيرة . سحرها الإلهى لا يوصف ولو  
كانت هنا شرفة داركم وأنت مطلة منها فى الليلة الأولى من لقائنا -  
لبدا كوكب الأرض هذا لعين العاشقين أبهى من نور القمر . هناك  
مولدنا وسكنانا . على ثراها وتحت نسيمها المنعش عذب العذاب .

لكن يا حبيبتي من يصدق أن هناك فى هذا الكوكب الصافى سكنت  
أسرتان تطاحن سادتهم وخدمهم ؟ وحتى خيولهم كانت إذا ما التقت  
تصارعت ؟ أسرة « كايبوليت » وأسرة « متاجيو » أسرتى وأسرتك .  
سفكوا الدماء على أبواب الأحياء وفوق قبور الموتى . وعلى الرغم من هذا  
كله فقد نمت الأزهار . واحتضن رجل الدين قصة حبنا فى صمت كما  
تحتضن الدجاجة بيضها ، حتى انهزم الكره وأفرخ الحب . وعشنا هكذا فى  
خفقة كل قلب وتحت الأجنان إذا عراها النوم أو داعبتها الأحلام .





لبدا كوكب الأرض لعين العاشقين أبهى من نور القمر



هل نستطيع أن نعيش وحدنا - أنا وأنت - فى هذا المكان  
حقيقة، دون أن نرى أفراح الأرض وأتراحها ، والقلق والمخاوف  
والحروب ؟!

إن الحب يا عزيزتى هو الشهد الذى يستخلص من كل  
الأزهار .. أزهار الخردل وأزهار الشوك وأزهار الأصص على أبواب  
المقابر ومماشيها . لأنه فى حقيقته نبضات عبادة ترسلها القلوب المختارة  
لتكفر عن خطايا البشر ، وحتى عن هجوم النسور على أعشاش  
العصافير . وقد تكفر عن الخطايا المستمرة التى لا تنقطع فى عالم  
الأسماك الذى قد نعيشة . يتعذى الكبير بالصغير والأكبر بالكبير . وهذه  
الأفراح والأتراح والقلق والمخاوف والحروب هى يا عزيزتى كل  
الأزهار الشريفة التى صنع القلب منها شهد الحب . لذلك فنحن لا  
نكره الأرض .. وحتى أول عين رأتها من فوق قبل أن نصل إلى القمر  
تغنت بسحرها .. جاذبيتها شديدة حتى ولو كانت معلقة فوقنا هكذا  
تبرق .. انظرى .. تبرق بجواهرها الهائلة التى أثقلها الله بها . عياه  
المحيطات والبحار . والثلوج على قمم الجبال . بالجواهر البشرية فى  
بقاع كثيرة من نواحيها .

هل أبنى لك هنا بيتا وأزرع لك حديقة ؟ هذا ممكن لكن فى  
مستقبل قريب . وأعيش معك هنا وتعيشين معى لنجعل من القمر أرضا  
مثل التى تركناها .. وسنحزن للناس : فنحن لا نعيش إلا جماعات .  
ولنفرض أن معنا ثالث . فإذا كان رجلا فسرعان ما تتكرر قصة « قابيل  
وهابيل » على أرض القمر . سيقتلنى من أجلك أو أقتله أنا ..

نصورى يا عزيزتى كيف يستقبل القمر أول قطرة من الدم . وكيف يحوى أول لحد .

أما إذا كان معنا ثلاثة فماذا تظنين أنه يحدث . ها . ها . تقولين إنك ستقتلينها من أجلى أو هى تقتلك .. ربما .. آ .. أنا لا أتصور ذلك . بل أتصور صورة أغرب ، سأكون بينكما مثل جبل تشدانه حتى ينقطع . ستقتلانى معا . شريكين فى القتل . لكن بلا تدبير ولا سبق إصرار . فالمرأة « كجماعة » لم تشهد فى التاريخ حربا ولكنها « فردا » تعتبر أعظم محاربة . ستسلطان الحب على قلبى بطريقة النور على العين حتى تفقد البصر . ستغرقانى فى بحر من الحب والغيرة على أرض القمر . حتى أموت .

عندئذ تلتفت كل منكما إلى الأخرى وتبكي . ثم تلتفتان نحو كوكب الأرض اللامع الوهاج المعلق فى سماء القمر فى أبهة علوية . وتسال كل منكما الأخرى . متى نقلع إلى هناك ؟

\*\*\*

عزيزتى ، ها نحن قد عدنا إلى الأرض من جديد لتسكن نخفتات القلوب ، وننام تحت الأجفان فى كل عين ، حتى يصعد الناس جميعا إلى القمر .

حَارِسُ الْحَيَاةِ

عندما مات أبوه فى هذه الليلة وجد نفسه وحيدا ، وحيدا تماما .  
وشعر بتمزق حاول وصفه فعجز .. شعور مستغرق شامل يجعل  
الواصف والموصوف شيئا واحدا .. نعم .. حاول وصفه لنفسه فعجز .  
كان عائدا من السوق يحمل لفة من الطعام .. لا تعنينا شتوياتها .  
فكثير من الناس ليس عندهم فرصة ليختاروا ما يأكلون .

ودخل الحجرة على أبيه فوجده ميتا ، وعندئذ وقف يادق كفا بكف  
ويقهقه بأعلى صوت . وضع الطعام على طبلية صغيرة وجلس القرفصاء  
ينظر إليه وإلى الرجل الرائد فى صمت أبدي ، ثم عاد يدق كفا بكف  
ويضحك .

هذه المنطقة الفسيحة التى يجلس فيها الآن كانت شمت أمره وأمر أبيه ،  
وبما أن أباه قد مات أذن فقد ورث هو هذه المملكة .. بكل محتوياتها  
من مبان وأشجار وأجسام . هى ساكنة هادئة بطبيعتها لكنها الليلة فقط  
- وعلى التحديد - فى هذه اللحظة غطاها السكون تماما .. خصوصا  
عندما دخل يحمل الطعام ووجد والده ميتا والراديو يغنى له غير محابى  
بالموقف . فقد كان تركه مفتوحا . وعندما دخل أقفل الراديو فاكتمت  
المنطقة هدوءا أشبه بهدوء المقابر .

وأخذ الشاب الجالس القرفصاء يردد فى نفسه : « هدوء  
المقابر » .. وضحك وبكى .. وتلفت حوله . إنه لا يسمع صوتا  
لأحد . والأشجار ليست عليها طيور .. والحجرة مربعة موصاة النوافذ

ونوافذها صغيرة . والليل ليل خريف « آه .. » وبابها مفتوح على ساحة فضاء مربعة بها شجيرات لا يعرف اسمها قتلها العطش عدة مرات من يوم أن كف بصر أبيه ، هذا الراقد الآن بلا نور فى عينيه . وأصبح الابن من يومها بصره يقود خطاه إلى كل مكان . ويقوم بأعمال الحراسة ، على أنه لم يتجاوز بعد الثامنة عشرة من العمر ، طرى العود والعزيمة ، لكنه لم يحس بسكون المقابر إلا هذه الليلة .

« سكون المقابر » ؟

وكان لا يزال جالسا القرفصاء .. حائرا .. وسأل نفسه . هل هذه أول حادثة من نوعها ؟ لكن ماذا ينتظر إذن ؟!

أراد أن يقوم فجعل ، خرج ثانيا إلى الفناء المكشوف ووقف ينظر ، خفق قلبه ، شعر أن سنه أصبحت أصغر من حقيقتها . رجل مكشوف كان يتولى الحراسة المحتاجة إلى بصر ، هو الذى منحه شخصيته خلال العامين الماضيين ، وقد أقام معه فى هذه الغرفة بين المقابر ! وها هو ذا أبوه قد مات . وها هو ذا يسمع من بعيد أنينا . إنه أنين الخريف بين غصون بعض الأشجار البعيدة فحسب .

ولأول مرة تبين أن هذه المباني مقابر ! وسمع السكون . وأحس بالخوف التقليدى المألوف من هذه الديار ذات الأبواب والشبابيك ، والأشجار والشوارع . أنكر صمتها فى هذه الليلة ، خيل إليه أن الخرساء نطقت فجأة ومالأت قلبه بالوساوس . غادرها « الأنس » بسكون الرجل والراديو يغنى جنبه حين كان قد ذهب لشراء الطعام .

ونظر إلى هذه الرقعة الفسيحة فى أحضان الجبل نظرة من يودع شيئا قد كرهه حقا . ولمع على الأفق الشرقى قرص من النحاس لقمر كبير صنع فى الجبل رسوما لا توصف معظمها خفيف . ولم يعد يستطيع أن يلقى نظرة على « الخفير » السابق وعلى والده ، فقد أخذ يفكر فيما هو أهم ، ولم يكن فى حاجة إلى إقفال باب الغرفة عليه لكنه لا يدري لماذا دخل وأدار مفتاح الراديو الصغير على محطة « القرآن » وترك المكان ومضى يجرى . ولأول مرة وهو يغادر باب الحجرة أحس أنس الكلام الذى سمعه من الراديو ، إذ قد طالما سمعه ولم يؤنسه .

كانت المشكلة الآن هى : « أين يدفن أبوه » ؟  
وضحك وهو يجرى . تذكر أن والده ربيب المقابر وليس له مقبرة . وأنه حارس لمقبرة إحدى الأسر ، لكن هل سيدفنونه فيها ؟

ولم يدري لماذا بدا الأمر معضلا خلاصته .. هى .. أن هذه « المملكة » طردت الحى والميت على السواء فى هذه الليلة . وابتسم حينما راودته فكرة أن يكون أبوه راقدا فعلا فى المقابر وليس « مدفونا » ! وأحس فيها تناقضا أشد من تناقض « الحياة » أو أقسى من ضراوة « الحرب » حين تصبح الجثث فى مكان لا يخص الأموات فى الشوارع ؟ لكن .. موقف أبيه .. ( هز رأسه ) وكان يجرى وما لبث أن دق الباب على رجل هو صديق أبيه ومن أهل المهنة . وخرج إليه فأخبره الابن بهلع بما جرى . ثم سأله فى تلعثم عن المكان الذى يمكن أن يدفن فيه أبوه ؟ أجاب الرجل فى شعاعة حاسمة :



- مقابر الصدقة يا بنى .

- مقابر الـ .. ؟

- وهل هذا يحزن ؟ وسكت قليلا وسعل من كثرة التدخين ثم

استطرد :

- عمك أبو العلا البناء حكم عليه الزمن وبات فى الخلاء عدة ليال .. « هى هى هى » ومصيتك أخف .. أن ترفض مقبرة مشهورة خفيرا مكفوف مات فى وسطها .. « وبشبه مرح حزين » وعلى كل حال لا داعى أبدا لأن تجلس أو ترقد جنب ناس لا يحترمونا .. هه ! وكاد الشاب يقهقه .. لكنه تبسم ومسح دمعة بأصبعه السبابة وهى مثنية وبعد أن طال الصمت نوعا ما انفجر الشاب يقسم :

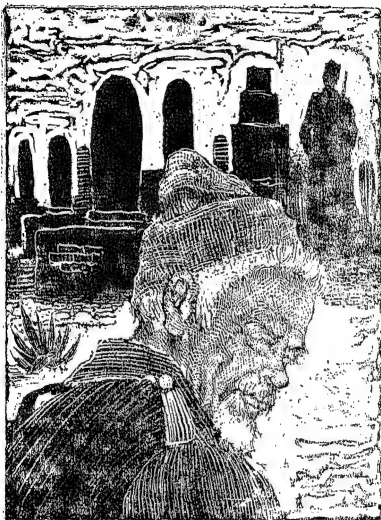
- لكن والله يا عم الحاج عمرى ما أحرس هذه الأماكن حتى ولو خطفتها الشياطين !

ترقية كبرى منحتها الحياة للخفير الصغير وريث الخفير الميت . فقد أخذه بعض أهل الخير ليعلموه إطلاق النار من بندقية فى الحقول القريبة من الأهرام وكيف يصيب الهدف تمهيدا لتسلمه مهام منصبه الجديد . وعندما أخذ يطلق النار دارت بفكره حقائق . أهمها أن حراسة الموتى لا تحتاج إلى رصاص . وعندما كانت البندقية تهز ذراعيه هزا شديدا مثل تيار كهربة سخي ، ويعود بعدها مرهقا إلى الحجرة التى يسكنها الآن بعيدا عن الموتى كان يقف فى خلاء الحوش المكشوف الكائنة فيه يفكر .. إذ كان يتخيل أنه ما زال هناك ما يكفى جدا أن يسمع الناس صوته وهو يحدث والده ، أو أن يفتح الراديو لكى يخاف لصوص المقابر .

وكان كثيرا ما ينسى نفسه وينظر إلى النجوم .. أيام كان يحرس الموتى ما كان يجد لومضاتها مغزى .. كان يراها أشبه بالقناديل التى يشعلها بعض الناس على قبور أحبابهم فى ليالى العيد ، أما الآن فيختيل إليه أنها تخاطب الأحياء .

وأحس بألم فى ذراعه نتيجة التدريب الذى يقوم به كل يوم . فقال فى نفسه : « لا بأس » . أحس بعذوبة الماء البارد فى فم المسافرين تحت الشمس . ولعله لم يدر أن فى أعماق أعماقه احتجاجا على طرد أبيه . إنه لم يطلق النار فى المقبرة لكنه فى عمله الجديد سيطلق النار ليلة ما على لص ، وتأوه .. وتصور دم ساقيه وهو ينزف ثم ينبلج النهار فيراه الناس هناك راقدًا منهوك القوى ، وربما ميتا على بعد غير بعيد من تلك المزرعة التى سيقوم بحراستها . « وتبسم » وبدل أن يعد الآيات التى كان يقرؤها كل ليلة فى عالم الموتى يعد أطرف الرصاص التى سيحملها معه كل ليلة فى عالم الأحياء .

وبعد عدة ليال شعر أنه خائف كأن شواهد القبور كانت تمنحه طمأنينة نسجت لنفسها بمرور الزمن حول قلبه غلافا بليدا . أما ظلام الحقول فإن له روائح أخرى . والأشباح حيث كان لأرواح شريرة تمر مثل الطيف وقد لا تعود ، واللصوص حيث كان جبناء أخساء يهاجمون من لا يدافع عن نفسه ، ومن رقد بانتظار ما هو أقدر من يد اللصوص .



إذ كان يتخيل أنه ما زال هناك ، يكفى جدا أن  
يسمع الناس صوته وهو يحدث والده ، أو أن  
يفتحا الراديو ، لكي يخاف لصوص المقابر .



أما لصوص الحقول فلهم أنياب وخنالب . وليس فيها أشباح . وكل ما يتحرك بخفة فهو كائن حى فى أضعف أحواله أرنب برى أو ابن آوى .

لكن « النقلة » كانت شديدة بالنسبة له ، ففى أول ليالى الحراسة شعر أنه مكلف بدفع الأذى والشر والإثم عن كل ناس فى الدنيا . ولكن مع هذه الحالة التى توشك أن تجعله فى صدام مستمر كان يحس بزهو شديد كأنه مثلاً نائب عن نور الشمس وسلام النهار . أو كأنه مثلاً « دلفين » فى أقيانوس مظلم يركب فلهور الموج بحثاً عن غريق يوصله إلى جزيرة أو شاطئ .

ومنحته البندقية « شاربا » فقد صمم على أن يربى شاربه . ومنحته أيضاً نظرة عميقة التحديق فما كان من قبل يبالي بأن يرسل نظره إلى بعيد ، فقد كان يحرس تحت قدميه فحسب . وبلغ به الميل إلى تعليل كل شىء إلى حد أنه أعتقد أن والده لو كان حارس مزرعة ما فقد بصره ، والسبب الحقيقى فى فقدته نور عينيه أنه حارس مقبرة . كأن نور العين حين لم يجد داعياً لوجوده .. ولى وترك الرجل .

وبدا اهتمامه بنفسه يخلق الأساطير . فكان هذا سبباً فى سيادة الأمن حول المزرعة الصغيرة التى يحرسها .

لم يدر من هذا الذى أشاع عنه أنه كان قبل ذلك حارساً لمزرعة فى قلب الجبل وأنه قتل عميد اللصوص هناك ، ولم يدر من ذا الذى أشاع أنه كان قبل ذلك فى السودان وأنه قتل أحد تماسيح النيل برصاصه . وربما لا يكون غريباً على النفس البشرية أنها تحسن تلقى كل ما يكون فى صالحها كما يرحب الصدر بالنسيم المبكر . ثم يدخل كل هذا فى

نسبجها دون شعور فتولد فى الرجل صفة جديدة تجعله هو شخصا جديدا ربما يقف أمام نفسه وجها لوجه ليتعرف فى نفسه الجديدة على حطام الرجل القديم .

وهذا ما حدث للحارس الجديد ..

نسى صمت الموتى وشواهد القبور ومواسم الاحتفالات بكل هذا ، وشعر بين رحاب المزرعة بأنه مثل إحدى أشجارها الدائمة الخضرة .. أوراقها التى تسقط لا تجعلها أبدا تجف . مثل الحياة .. صرخة المولود بأول تنفس وشهقة الذاهب بآخر تنفس هما دستورهما . لكنها دائمة الخضرة ، أوراق جافة تدوسها أقدامنا وأوراق خضراء تظلل رؤوسنا ! كان الليل باردا . وكان هناك صوت ريح . وفى الليل شيء يثيفه على غير العادة .

كانت المزرعة مؤلفة من حديقة صغيرة من المانجو وحظيرة كبيرة جدا لتسمين الماشية .. وفى الليل البارد . لم تكن فى موسم المانجو بطبيعة الحال .. وكانت حظيرة الماشية هى الشيء المهم الذى سيرعاه . لكن صوت الريح وهمس الليل أزعجا الشاب .

ولم يلبث أن سمع داخل الحظيرة ثورة غير معقولة . ولم تنبح الكلاب فأيقن بطبيعة الخفير الذى دربه الزمن أن الكلاب إما مسمومة وإما مخدرة . فلما فتح باب الحظيرة واقترب ألفى الكلاب تحمق فى حلم . أيقن أنها مخدرة .. لكن الحوادث لم تمهله فقد ألفى مجموعة من العجول الشابة فى حالة هياج خفيف . كأنما أصابها جنون . كل منها شرع قرونه وهاجم غيره .

كان أن تقدم .. فإن معنى ذلك الموت .. كانت الأبقار قد قطعت  
حبالها وشرعت قرونها . وساد المرح والمرج بين ما يزيد على مائتين من  
العجول القوية .

وعندما فتح الخفير باب الحظيرة كان هناك عدد يجرى بسرعة  
وجنون مشرعا قرونها ليقتل أى إنسان . أما الكلاب فقد ظلت راقدة  
تحلم .. وابتلع الظلام المواشي ووجد الخفير نفسه فى موقف يدعو إلى  
الحسب .. فجرى وراء الأبقار الشاردة وأطلق النار على رؤوسها  
ثم .. ذبح ما سقط . وأقفل الحظيرة وجلس يسمع إلى الخوار الذى أخذ  
يهذا قليلا قليلا .

لم يأت نور الصباح بسرعة .. تأخر الليل كأنه نسى الموعد . وأخيرا  
جاء وكان عدد الأبقار التى ضربها برصاصه ثم ذبحها ثلاثة أو أكثر .  
ولكن الموقف عندما جاء أصحاب المزرعة كان غريبا .

قال أحدهم وهو يضحك فى غضب :

- أعطيناك البنادقية لتحرس المزرعة فقتلت البقر وذبحته .

وقال الثانى :

- كان الأولى بك أن تطلق رصاصك على لصوص .

فرد الخفير فى ثقة :

- أنتم لا تعلمون أنى لا أعرف الخوف لأننى عشت بين الموتى عادة

أعوام .. ولما رأيت الكلاب مخدرة عرفت أن فى الأمر جريمة . كان لا

مفر من أحد أمرين أما أن أترك هذه الثيران الهائجة بين الباقي فتتحول

الحظيرة إلى مجزرة جزاروها حيوانات . وأما أن أفتح الباب للثيران

الهائجة وأتصرف كما فعلت .

قالوا :

- وهل أصاب هذه الثيران جنون مفاجيء ؟

عند ذلك هز الشاب رأسه قائلا لهم :

- عندما يحضر البيطرى سأشرح له ما ضمته ، وسيرى الأمر بنفسه .

وصدق البيطرى على رأى الخفير ، فقد فاحت رائحة «الشطة» من روث الثيران التى ذبحها قبل أن تخرج بقرونها أحشاء كل ما فى الحظيرة .

نظر بعضهم إليه على أنه أحسن التصرف .. ونظر بعضهم إليه على أنه لا يصلح .. لكنه ما لبث أن وضع نفسه تحت تصرفهم ليقبلوه أو يطرده وهو يقول فى هدوء كامل :

- لو كان عدوى سافرا لقتلته . لكن ماذا أعمل فى عدو يكمن كالجراثيم .

على كل حال لن أحرس إلا الأحياء ، وسأظل أحرس المزارع .. هنا .. أو هناك .

فرد عليه أكبرهم قائلا :

- بل هنا .. ستجعل منك التجارب رجلا أضخم مما نرى .



أزیز ..

كانت هى الكبرى وكان هو أصغر منها .. حفلته جسدول الضرب  
وضربته بالمسطرة على يديه .. ثلاث سنوات فى العمر أو تزيد قليلا  
بينها وبين شقيقها .. وهما لا ثالث لهما . بنت وولد .. قالت الأم يوم  
رزقها الله بهما : « نعم إرادة الله ولم يبق ما أشتهى » .

سيطرت عليها ظروف صحية ، ففى كل ولادة كانت تنعرض  
للموت . فضلا على أنها مديرة مشغل للتطريز فى أحد شوارع العاصمة .  
وزوجها موظف فى السكة الحديد ... كل منهما يسمع أزيز الآلات  
بطريقة شاذة للآخر .

و كأننا أول ما يلتقيان إذا أعفتهم « النوبتشية » وضمهما البيت  
والليل ، أول ما يلتقيان . يقول الزوج لزوجته : « نأحكا :  
- كيف حال الماكينات ؟

فرد عليه بوجه حجب متعب بيهود :

- هيه !؟ .. وكيف حال الواورات !؟

- حياتنا كلها أزيز .. هأنذا جالس على الكرسي مسترخ بكل  
أعضائى يا سيدتى ، لكن صفير قطارات « شطة مصر » وصوت  
« الميكروفون » الذى يعلن عن موعد قطار تأخر أو غير الرصيف - بمألا  
دماغى!! آه .. لا تكلمينى عن « الماكينات » فهى لا تختلف كثيرا عما  
عندنا . إلا أن ما عندكم ساكن وما عندنا متحرك . آه .. أريد أن  
أصنع لقدمى حماما دافئا . ( وصمت ) من الممكن أن ننادى « سعاد »  
لتعمل لى ذلك !!

وتلقت الأم كأنها حائرة تبحث بعينيها الجميلتين المنهوتين عن شيء مجهول ، ثم لا تلبث أن تنهض لتودى لزوجها طلبه . فلا يلبث هذا أن يمسك بيدها ليمنعها عن الحركة .

هى واقفة وهو جالس .. ونظراتها منصبة عليه فى ضياء يبدد ظلمة النفس كما ينصب نور « الأباжور » فى داخل حجرة مقفلة فيها فتاة و غلام .. هما ابناها .. والفتاة تعمل فى جهد شديد ملقية بطرف اهتمامها إلى أخيها الذى يصغرها والذى يغافلها بين وهلة وأخرى لينخرج من جيبه بعض حبات السودانى الناضج الرائحة . لكن ذلك كله لا يهم الفتاة ولا يزعزع أصرارها .

وقال الزوج لزوجته النافرة إليه وهو يجذبها من ذراعها لتعود إلى مجلسها :

— دعى البنية تصنع لى حمام القدم واجلسى . عما قليل سيأوى كل إلى فراشه لأن عملى سيبدأ فى الخامسة صباحا . ثم .. آه نسيت — آه قولى لى : هل عرفت من هى التى تسرق قطع الماكينات الهامة الصغيرة ، وفى أى لحظة يتم ذلك ؟!

وقبل أن تجيب الزوجة يستطرد الزوج : لكن .. لماذا أسألك عن هذا ؟ — بعض مآكينات الكتابة تسرق قطعها عندنا والكل عاجزون عن المعرفة كأنهم هم السارقون .. لا تقومى .. أحس أن قدمى قد ارتاحت نوعا ما والنوم كفيل بالباقى . ( ومد ذراعه خلف ظهرها بحركة آلية وهو يكمل ) النوم يا عزيزتى هو حضن أمنا . فلا داعى مطلقا لأن تزعجى الفتاة .

وأطرق وكأنها نسي نفسه . نسي مجهوده وموضوعه وضجيج القطارات في باب الحديد وقدميه المحتاجتين إلى ماء دافئ ، وحتى ذلك الوجه المنهوك لامرأة حلوة الملامح تجيد ألوان الحديث وتختار دائما ما يقال .. وكانت تتأمل زوجها الذى استطرد وهو ينظر إلى باب حجرة الأبناء .

- هما وحدهما .. المسئولية ترعى الفتاة . والفتاة ترعى شقيقها .  
- هيه .. أنها فى .. الـ .. ثانوية العامة .. حيث يتقرر مصيرها كإنسانة وزوجة .  
- وزوجة ؟  
- ألا تعرفين هذا ؟

- آه .. أنت على حق ، لقد تغير كل شيء بالنسبة للفتاة حتى مقاييس الجمال . لم تعد العين الحوراء ولا البشرة الناصعة فى المقام الأول .. بل هو ما تكسبه المرأة . وهذا عن طريق تعليمها .  
وفى هذه اللحظة ارتفع فى حجرة الأولاد ضجيج .. أنصت إليه الأبوان فعرفا أن الفتاة تزجر شقيقها من أجل العمل .. ثم سمعا صوت بكاء مكتوم ولم يلبث الصمت أن يخيم . فقال الزوج وابتهامة شاحبة على شفتيه وساقاه ممدودتان إلى الأمام كأنهما شدنا بحبل :  
- عندنا فى المصلحة .. السكة الحديد .. إدارة اسمها « إدارة الحركة » هل سمعت عنها ؟

- قليلا .

- إنها بالنسبة إلى الطرق والركاب هى مناط السلامة . فمثلا فى الساعة كذا يتحرك قطار كذا ويلتقى بالقطار الفلانى فى محطة (س)

حيث يكون الركاب المتجهون إلى الشمال بانتظاره بعد النزول في محطة ( ص ) من القطار المتجه إلى الشرق . وهكذا .. لا تخلف ولا تصادم . لكن الذى علينا الآن أن نعمله هو نقل هذه الإدارة إلى كل بيت . وهذا يحتاج إلى عناية إلهية لن تمنح لكل الناس .

\*\*\*\*

أطرقت الزوجة تفكر . كانت إحدى بنات أربع ولها شقيقان . كانت أمها وأبوها يقسمان أيام الأسبوع . فالنصف خروج والنصف استقبال وضيوف وفناجيل القهوة وربما أطباق اليوسفى والبرتقال فى حجرة الصالون ، والمصمصات والقهقهات والنور مشعل حتى منتصف الليل . ولم تكن هناك فى بيتهم رقابة كافية . ومع ذلك فقد نجح الجميع بطريقة ما . وهى .. هى التى تعلمت التطريز والحياكة فى إحدى المدارس تعمل منذ مدة فى هذا المصنع . لكنها تشعر أنها تجر عربة تحمل كل الناس . ولولا المرح الطبيعى الذى يتصف به زوجها وقلة الأولاد لساد بينهم سلوك البؤس . وجرها من أفكارها قهقهة مفاجئة أتت من زوجها حين قام قاصدا حجرة نومه :

- هل تعرفين لماذا أضحك ؟!

- قل لى .

- إنى أتصور ماذا يحدث لو أن سعاد دخلت إحدى الكليات العظيمة وتخلف أخوها الغبى . ثم ماذا سيكون لون الفرح عندما يتقدم إليها - بصرف النظر عن جمالها - شاب ناجح . والأخ لا يزال يقوم ويسقط .

- ضجيج القطارات أتلف اليوم أعصابك . لكن من ذا الذى يحول  
بين أحد منا وبين قدره ؟  
قال الزوج متحمسا :  
- عندى فكرة .

- نعم . خير .  
- ماذا يحدث لو تركت عملك وعملت مديرة للبيت . لا . لا . أريد  
أن أقول : لو خيروك بين أن تكونى مديرة مصانع خفس الدوار ويفشل  
ابنك وبين العكس ، فماذا تختارين ؟  
ردت الزوجة ببساطة وهدوء :

- مرتبى قدر مرتبك أو يزيد . فماذا يحدث لو خيرت أنت بين أن  
تكون مديرا للسكة الحديد ويفشل ابنك وبين العكس ، مع العلم بأننى  
سأؤتى الإنفاق إذا تفرغت أنت لإدارة ( القصر ) يا حبيبي ؟!!  
عاد الزوج يضحك . كان يعلم تماما أن هناك ظواهر لا تمتثل  
لإصدار الأوامر . اختفى الطربوش وظهرت القصبية ثم السوالف .  
كان الطربوش له قداسة السروال . وكم عذب أطفالا وأبناء  
وأمهات بزره الحريرى ونسيجه الذى يتورم من العرق . ولم  
تعد السوالف اليوم وقفا على الشبان فهناك سوالف لعب فيها الشيب  
وزورتها الصباغة . ثم قال الزوج فى نفسه : « إدارة الحركة » لازمة  
للنظام لكنها ليست « إدارة وقوف » . ثم نادى بسأعلى سوتيه :  
سعاد .. يا سعاد ..

وجاء من الداخل صوت ندى عذب حنون :  
- حاضر يا بابا .

وجاءت فقال الأب :

- أريد لقدمي حماما !! هل عندك وقت ؟

- سأكل هذا السندوتش وأنا أعد الحمام وأستعيد بعض ما يجب حفظه . فأين الوقت الذى ضاع يا بابا ؟ بل هذا وقت رابع هو الذى رأيتك فيه .

قبلها الأب فى جبينها وقال مداعبا :

- سأعينك مديرة للحركة فى المنزل . فأملك مشغولة : وأين أخوك !  
تعالى يا عزيزتى ؟! تعالى يا عزيزتى ! هل كل شىء بينك وبين أخيك على ما يرام ؟  
- إنى أحبه .

- ربما أملك ؟

- كل منا يتحمل الآخر ، لكن لى طلبا واحدا هو أن أتعشى معك الليلة .

نظر الأبوان كل إلى الآخر . كانا لا يريدان عشاء أكلا فى المكاتب ما يمكن . وهما يحتاجان إلى النوم . ولكنهما شعرا أن عصفورا حببسا يريد أن يغرد فى الهواء الطلق ، وأن هذا العصفور غير مسئول عن شىء معين هو القفص والزحام .



ونام الأبوان بعد العشاء . وفى الحجرة الأخرى كان هناك « أباجور » ساهر . تحته رأسان لم تستطع هموم المستقبل أن تسيخ على أفكارهما . دهرهما لحظات حاضرة ، مهما حاولنا أن ننفى ذلك . هذا بالنسبة

للأبن على الأقل . أما الفتاة فقد كان لها من خيالها معين على تصور  
المستقبل لذلك فقد كانت حارسة شقيقها ، وأما الأبوان .. فقد كان  
صغير القطارات يملأ أذن الرجل .  
كما أن أزيز الماكينات يملأ أذن المرأة .  
حتى دق جرس المنبه .



الزُّبْد .. والحرِّيَّة

هل هذه هي الدنيا ؟!

كان كل منهما يوجه السؤال لصاحبه وعلى الفم ابتسامة وفي العين سعادة . وكان موضع تساؤلهما هو ذلك العش الصغير . الجديد . السكن المكون من حجرتين والمرافق . كان العروسان كل مساء حين يشعر كل ساكن أنه نال استقلاله تماما فلا زيارات ولا أجراس — كان كل منهما ينظر في عين صاحبه ويتساءل وعلى الفم ابتسامة وفي العين سعادة .

« هل هذه هي الدنيا ؟! » .

وكان الشاب يئيب في ضميره بما تعودته من غوص وراء كل غريب : « نعم .. هذه هي الدنيا ولو كانت حجرة واحدة ، والسبب في ذلك هو أن السعادة تحت شجرة واحدة خير ألف مرة — بلا جدال — من الشقاء في حديقة !! ماذا إذن يهمنا من عدد الغرفات والكراسي والأرائك ؟! هذه هي الدنيا » .

أما هي فكانت حتى الآن لا تزال معتيرة من ربات البيوت . .  
وعندما يعود من عمله يجدها قد طهت له شيفا . واللذيذ في الأمر أنها كانت تقابله بضحكة كبيرة عندما تفشل في الطهي . وتقول له وهو جالس معها إلى الطعام :

— ألسنا متفقين يا حسنى ؟! هل غششتك ؟!

مطلقا فقد قلت لك أيامها ونحن طلبة إننى معتمدة على يدى أمى  
فى طعامى .. أليس الخير يا حسنى أن أطبخ ( القانون ) ما دمت فى  
كلية الحقوق طالبة. وبعد التخرج .. ف .. فأظن أن ( السبانخ ) أسهل  
من القانون . هل أنا مخطئة ؟

وتقطع عليه استقلال رأيه فى الحكم بضحكة تعتبر ( رشوة ) لكن  
الشاب كان يصمت فى سعادة وصبر . ويمضغ الطعام كعادته فى هدوء  
شديد حتى يبدو أحيانا كأنه نسى اللقمة فى فمه . ثم لا يلبث أن  
يقول :

- إننى لم اعترض .. لكن بما أنك درست الحقوق فعليك أن تعرفى  
الحقوق .. تلك التى تتعلق بغيرك . فليس على الأرض كائن ولو كان  
غير إنسان لا يعرف حقوق ذاته ..

ونظر إليها يسألها الجواب فأومأت برأسها :

- صحيح ..

فاستطرد :

- والوضع ( القانونى ) لك الآن هو أنك من ربات البيوت ، فعليك  
أن تعطى ما يطلبه هذا الوضع يا عزيزتى .  
قالت بلهجة يشوبها عتاب :

- هل ملكت ثم تأخرت ؟ هذا هو كل ما عندى يا حبيبى !!

- لا ! لا . نسيت شيئا هاما . نسيت أنك تعيشين فى المستقبل .  
يعنى أنك تقومين بالخدمة وأنت مشغولة ، كأنك قد تسلمت عملا  
شاقا لم يبق لك ولا لزوجك ولا لأولادك وقتا ما .

كفت الفتاة عن المضع وأطرقت تصغى . وفجأة تحول الموقف إلى جدية أكثر حين شعرت الفتاة أن تربيته التدليل قد تكون لطمة مستورة وأن اللطمه قد تكون صرخة حب . وكانت فى حقيقة شخصيتها إنسانة طيبة مسالمة لا تشعر بالسعادة إلا إذا أهدتها إلى غيرها . ومن أجل ذلك أخذت تفكر فى سكون : « هل هو غضبان ؟ هل هو غير سعيد أو هو شاعر بالغين ؟ » .

وبعد أن ظلل السكون لحظة عاد الشاب إلى طبيعته بوجهه الطلق وفمه الباسم يحكى لها حكايات عما صادفه فى نهاره .. وليس بمجرد حكايات لكنها فى الواقع لمس لحقائق الحياة ..

\*\*\*

ما لبثت الأيام أن مرت ، وكانت الفتاة فى قلق بانتظار هذا اليوم ، وها هو ذا قد جاء . تسلمت خطابا ينبعها بمكان عملها .. وغطت الفرحة على بعد المكان . فقد كان عليها أن تسافر من القاهرة إلى « بنها » كل يوم . قالوا : بنها ؟! ثم ما لبثوا أن قالوا : على كل حال أن اسمها « بنها العسل » فهى أحلى من غيرها : واستطرد الزوج : وربما تكون فى حقيقة الأمر أقرب من مكان فى آخر مصر الجديدة بالنسبة لنا .

عزيزتى .. رب بعيد قريب ورب قريب بعيد .

والفرح نوع من الخمر يعقبه - غالبا - صدام .

فبعد الأيام الأولى من تسلم العمل بدأت تشكو ، والشكوى أحسن آلة تبحث عن مناجم الهموم ، فبدا للزوجين أن اليقظة الباكرة شىء غير طبيعى . وأن أوامر الرؤساء بشىء من الغلظة شىء غير طبيعى . وأن

جلوس الرجل المسن على كرسى فى الأتوبيس وامرأة واقفة أمر غير طبيعى . وأن نزول المطر فى الشتاء وزوجته خارجة إلى عملها أمر غير طبيعى .

ولم يعودا بعد ذلك يتكلمان عن جودة الطعام ولا ( التخصص ) فيه . لكن ذلك لا يعنى أن فرحتهما قد زالت . شىء ما قد اعترض طريق لعانها لكنها كامنة فى قلوبهما .

\*\*\*\*

أما اليوم الذى صرفت فيه أول مرتب من عملها فلم يكن عندها يوما . كان عدة تواريخ ميلاد بالنسبة لها وكل تاريخ عيد . ولم تطق البقاء فى « بنها » فاستأذنت بحجة أن شيئا مفاجئا نزل بقلبها ولا بد لها أن تنصرف اليوم .

ولما استوضحوها الأمر أقسمت أنها صادقة .

وعاد زوجها من العمل فوجدها فى المنزل . دهش بل خاف . لكنها قابلته بفرحة ولدت من جديد . فرحة أحلام المرأة التى حققتها الأيام . وقدمت له مرتبتها . جلس إلى جوارها ولاصقته وأخذها يعدان وكأنهما لم يريا نقودا . كانا سعيدين للغاية . وبعد ذلك قالت له فى دعابة :

- احذر أن تلومنى بعد اليوم . فحلاوة المطبخ تأتى بعد حلاوة المشاركة فى العمل . والمرأة على كل حال يجب ألا تنظروا إليها على أنها ( فاتحة شهية ) .. حسنى .. أنت اليوم رزين أكثر من اللزوم .

كان مبتسما لا يرد . وكانت الأعين تحملق في شوق . كل منهما يفحص وجه الآخر كأنما بعد غياب طويل .

وفجأة .. هتف الشاب ؟

- ما هذا !؟ من هذا !؟ .

كان جرس الباب يدق في خشونة . اليد التي تدقه تدل على أن من بالباب لم يتعود كثيرا على دق الجرس .  
وقام الشاب وفتح .

كان بالباب فتاة سمراء ريفية جميلة . ونادى الزوج على زوجته فقد عرف الحكاية دون كلام . وجاءت الزوجة :

رأت فتاة حلوة الملامح والصحة وإن بدا عليها الإجهاد . تلبس ملابس سوداء وفوق رأسها إحدى ( المشنات ) ورائحة الزبد تفوح حولها تنير عن نفسها .

وضحكت ربة البيت وهمست في أذن زوجها :

- اطلع .. لا بد أنك الذى قلت لها كى تجىء .. لأن زوجتك قد ( قبضت ) !! أنت تعرف الطيب والردئ من ( الزبد ) يحكم نشاطك الريفية ، فعليك ذلك . أما أنا فلا علم لى .

وتأكد الشاب أن الزبد جيد لكنه أخذ يجاذب الفتاة أطراف الحديث . عرف بلدها . ولكى يجعلها شديدة الأنس - كطبع بعض الناس - ذكر لها معالم قريتها . تلك التى يقع فى مدخلها وابور طحين يملكه فلاح ، وإلى تحاهه حديقة نخيل من بلح الزغلول .

كان ذلك مصادفه بلا شك . لكن المصادفات مقررة . تقع دون استئذان .

ومن طبع القروى أن يسترضى المدينى لأنه فى قرارة نفسه يعتقد أنه الأقوى والأذكى والأجمل والأغنى .

وكان ذلك سببا فى أن الفتاة الوديعه السمرء البسيطة بدأت تزن الزبد وتتكلم حين سألها حسنى عن مهنة زوجها ، فضحكت فى لطف قائلة :

- لا يمكن إلا أن يكون فلاحا .

سألتهما الزوجة فى دعابة أيضا :

- هل تزوجتما على حب ؟

ففتحت الفتاة فيها عينين رائعتين ثم أجابت وهى مطرقة نحو القوالب الشهية البيضاء :

- فى القرية كما فى المدينة ناس يتنهدون ؟

وغمغمت بضحكة .

\*\*\*

وبعد أن شربت كوبا من الماء البارد استعذبتة كثيرا قالت بحبيبة عن سؤال !

- « تزوجته منذ عشر سنوات ، كنت صغيرة فى حدود السابعة عشرة ، هكذا قالوا لى . وليس هناك سنبله من القمح إلا زرعناها معا وجميدناها معا . والمواشى مسئولة منى وحدى . وكأنى أمها ، ! ليس فى حقلنا بذرة لم نضعها شركة . العمل بيننا بالنصف من زمان . لكن للرجل حق الإمارة . هكذا قالوا لنا » .

ظلل صمت على المكان حتى جمعت ميزانها وأخذت النقود وهبطت السلم . ولما دخل جمعت ميزانها وأخذت نظر بعضهما إلى بعض كأنما رأيا أن من الواجب أن يراجعا قصة الرجل والمرأة . بدت لهما وكأنها قضية جديدة . مع أنها على ما يظن بعض الناس بدت أولى « جلساتهما » بين آدم وحواء وظلت توجل وتستأنف حتى اليوم .  
قال الزوج بعد أن جلسا إلى مائدة الغداء :

- عزيزتى .. عدت اليوم من عملك مبكرة واعتذرت هناك لهم بأن شيئا مفاجئا نزل بالقلب . عزيزتى الأرز لا يعجبني اليوم لكن ليس هذا هو المهم .. المهم أنك اشتريت الزبد للمنزل من مرتبك . هذا جميل . ( وضحك عاليا ) أعطيناك الحرية وأخذنا ( زبدا ) . أينما يا ترى أخذ أكثر ؟ نحن الرجال ولا شك .  
كانت مبهورة بما قال فقد بدا الكلام جليا ، لكنها كانت سعيدة .  
واستطرد الزوج :

- ومع ذلك فإن المرأة الريفية قد نالت كل ما طالبين به بلا مطالبة .. لم تسمعيتها وهى تحكى عن المشاركة ؟ وعن تحمل كل مسئولية ولها أيضا فيها النصيب الأعظم .

وبعد صمت وبسمات متلاصقة كبريق شىء غامض :  
- لا تقولى إن « بنها » بعيدة ، واحذرى أن تشتكى من آلام الحمل فى المستقبل ، فقد كانت القروية تحمل ( جنينا ) وحمولة من الزبدة .  
وضعت الزوجة المعلقة وقالت فى شبه مناجاة :  
- حقيقة يا حسنى . إن الشكوى أحسن آلة تبحث عن مناجم الهموم . فلننعم حياتنا .





في القرية كما في المدينة ناس يتنهلون !!



# مزمّار الرّاعى

( جوليت فوق سطح القمر )

فى قارة السحر والكنوز والغموض .. أفريقيا .. تقف عند نهاية الأفق بقايا غابة . قطع الأوربيون أكثرها . ثم أتاحت الأمطار الكثيرة والجو الإستوائى للأعشاب هناك أن تنبت بعد أن قطعت الأشجار . وبذلك ولد مرج جديد .

كانت أصوات المناشير تعمل على بعد وتساقط الأشجار الضخمة يحدث هزات يخيل إليك معها أن الأرض لفظت شيئا ، ومع هذه الحركة التى ألفتها المواطنون كانت ترتفع أصوات العمال من بعد وهم ينادون بعضهم بعضا كأنها تراتيل للتغير الذى أحدثته الآلة فى هذه الأماكن . أما منطقة العمل نفسها فكانت مليئة بالكواخ المصنوعة من الخشب المشقوق ، وحملت السقوف وقودا من الأغصان الجافة . تلك التى يرتفع منها دخان الطبخ والغسل كل يوم باستمرار .

أما المرج الجديد فهو على سعته لم يكن كبيرا بالنسبة لأبعاد هذه القارة ، وكان الرعاة يسرحون إليه كل يوم . وقبل غروب الشمس تنحسر عنه ببطء غير منتظم قطعان الماشية تحذوها نداءات كأنها نصف همهمة . لكن .. قلما يخلو هذا الجو المشحون بالمتاعب والحكم بما سيكون فى سهرة الليلة حول الدفوف — قلما يخلو من غناء .

وكلمة « السحر » يمكن إطلاقها على أشياء كثيرة .. هناك .. تطلق كلمة « السحر » على القبيح جدا مثل وجوه عجائز شكسبير . وتطلق على الجميل جدا مثل نهوض البدر على خط الأفق الشرقى فى نهاية

الشهر . وتطلق على القوام الأفعوانى الأسود وهو يتلوى من غناء الليل وطرب المجموعة . وتطلق على الحية حين يخردها أحد الرقاة فتستنيم له كما تستنيم هرة فى مخدع طفلة . وعلى شجاعة الرجال حين يأتون بما يشبه المعجزة فى العمل .. والحرب .

من أجل ذلك فإن كلمة « سحر » يهمس دائما بها الأوروبيون والأوربيات فى هذه القارة ، وخصوصا النساء ، كما يتهامسون باسم عطر باريسى جديد وصل إليهن للمرة الأولى ، وكانت كلمة السحر تلف سيرة شاب أفريقى يقيم فى هذه المراعى .. ولم يكن إلا راعيا .. وقد نسى جميع الناس اسمه من أوريين ووطنين لأن اسم الشهرة غطى على اسمه الذى أطلق عليه ولم يعد أحد يعرف عنه إلا أن اسمه « النمر » .

كان الأوروبيون والأوربيات يحسون أول ما تقع عليه عيونهم بما يحس به شخص ما عندما تقع عينه فجأة وبلا توقع على جبل أو بحر أو أى شئ من هذه التى بنتها يد الله ولن تهدمها إلا يد الله .

لا يعيق الظلام عينيه من أن يرى ما يهيم .. وإذا عمل عرق لأنه يستنفد كل طاقاته فى العمل . وإذا رقص عرق لأنه يستنفد كل طاقاته فى الرقص . وإذا أحب .. أكاد أقول « عرق قلبه » لأنه يستنفد كل طاقاته فى الحب . وإذا نازل خصما فإن موقفه لا يتغير عن بقية المواقف .

وكان واسع الخطوات ولا تسمع خطاه . يسمح الأفق بنظره يمينا ويسارا ولقوامه الطويل يدو للعين وكأنه يختال فى مشيته ، ولذلك أطلقوا عليه اسم « النمر » .

له ثلاثة أشياء غالبية عليه : قطيعه الذى يرعاه . وبندقيته التى يمسك بها . وزمارة الراعى التى يعزف عليها وهو متكئ أو عائد أدراجيه أو سائر فى المروج ..

وهو بحكم تقاليد هذه المناطق .. قد تزوج مبكراً .. عرف الحب .. وعن طريق الحب أدرك معنى رعاية قطيعه .. وعن طريق الحب سمعت أذنه همسات كلمة السحر حين ينفخ فى مزماره .. فوصل إليه همس الكلمة من أفواه الأفريقيين والأوروبيين وكأنه همس الحرير حين يلامس الحرير .

وعن طريق الحب عرف أن المصاعب منقوس وأعدوا شذبة العطر تحرق فى معبده من عهد « ديانا » حتى اليوم . وأن الحب قسا يكتب رسائله بالدموع أو الندى ، أو بقطرات من الدم .

وقد حدث لهذا الشاب أن فعل . كتب رسالة حب ببعض قطرات من الدم . يوم كان يرعى فى المروج ويعزف والوقت قبيل الغروب .. وكأنما اللحن باب انفتح عن فتاة .. يعرفها .. لم يكن قاد تزوجها بعد .. كان حين يرقص على العلبول ويتلوى أحداث هس ترقص فى داخله .. وفى داخلها كان هو يرقص . وكأنما البشر نهر ، حيثما تلتها فى منبعه .. فإذا انسد أو فاض رأينا القناح خنادقاً تنبأ .



يوم كان يرعى فى المريج ويعزف والوقت قبيل الغروب





وبعد القبلية الأولى التى لمست الشفة مكان المزمار ، اختفت القبلية والغنوة وبدأ الحب يكتب رسائله ببعض قطرات من الدم . حين بدأ الغريم الذى كان متربصا لهما . وانتصر « النمر » بعد جهاد .

أما حبه لقطيعه فمغزاه إثراء الحياة .. أرواح تعرفه وتنفعه وتنفع الناس . وكأنها من صنع يديه . كأنما كانت فى الأصل ثمائيل صغيرة من الصلصال شكلها وأحسابها عددا ثم نفخ الروح فى كل مكان منها . وفى عيونها يرى المودة ويفزع إليها إن أخافها فى المرج شىء وإن اضطجع وغنى بمزماره شعر وكأنه يغنى من أجلها .

الغابة والمرج والناس والحيوان .. وحتى الوحوش - يخيّل إليه أنها أجزاء يكمل بعضها بعضا . كلها جسم أفرقى له زيه وقوامه وسحته وتكوينه . لذلك كانت الأكواخ المصنوعة من الخشب المشقوق والمقامة بأمر الأوربيين والتى ينبعث منها الدخان وكأنها تحترق - هذه الكواخ لم تكن تروقه .

وفى أيام الأحاد أيام العطلة الرسمية للعمل فى الناشر كان بعض إخوانه يذهبون إليه فى المرج . وكانوا يتحدثون .

- الله قد زرع هذه الغابات عندنا .

- هو كذلك .

- زرعها فى أرضنا فمن الغريب أليس كذلك أن تكون لنا وحوشها وأفاعيها ولغيرنا يكون خيرها كله !!

- يقولون إنهم ينفعون وينتفعون ، أما نحن الأفريقيين .. آه ..

- حكوا أن شابا أصابه مرض غامض حار رجال القبائل كلهم فى

علاجه . ولما يسافر إلى مكان نحو الجنوب حيث تقوم شهرة رجل

حكوا أنه يأتي بما يشبه المعجزات . وبعد سفر وعذاب وتعرض للأهوال والمخاطر ذهب المريض مع من يرافقه إلى هناك فوجد ناسا كثيرين بالانتظار ، ففأول قائلا : هذا دليل الثقة . فلما دخل على المعالج رأى الوافد شابا يافعا معلولا . فنظر في عينيه طويلا وفتح كفيه وفرك أصابع يديه وقال له : علاجك في عشب يمكن الحصول عليه وسأدلك على مكانه في أعلى جبل . وستعود إليك صحتك ويمكنك بها أن تصرع ثورا . لكن لي شرط هو أن تقضى بقية حياتك كلها في خدمتي أسخر ك كيف أشاء ، فأنا سأهبك الصحة فلي عليك ما أريد . فكر الشاب مطرقا مليا وطال أطرافه حتى ظن الرجل أنه نام ونسى . فلما نبهه رد عليه بإشارة واحدة : « لا » فاستعجب الرجل مستفهما .

فقال الشاب :

- تقدم لي جرعة من الماء لتتقننى من الموت ظمأ ثم تشربني أنا ١٢ لا داعي للعذاب .. ممكن أن أعود الأميال التي قطعتها إليك .  
- مخطيء ١٢ .  
- مصيب ١٢ .

لا تكون الحياة لمن العلاج مطلقا ولا يكون الاستبعاد لمن التنوير » وإلا أعطينا ذهباً وأخذنا .. رصاصا .

ولم يلبث الجميع أن أفاقوا على ضجة . كانت في مكان قريب . عندئذ نهضوا ووقف « النمر » على مرتفع من الأرض . ثم ما لبث أن صاح :  
- لقد سمعت طلقة رصاصة هناك على مقربة من أول الغابة .

وعندما وصلوا إلى هناك وجدوا وطنيا مقتولا . وكان وحيدا لم يصل إلى مكانه أحد بعد . وتبين أن عراكا قام بينه وبين القاتل ، وأن

الوطنى تفوق عليه ، وأخيرا أطلق الأوربى عليه النار . وكانت كف الوطنى وهو رجل ناهز الخمسين .. كفه القوية مطبقة على شىء .. فلما فتحوها وجدوها كانت متشبثة بما يمكن ألا يرى . يبضع شعرات شقراء شلعت من رأس خصمه أثناء المعركة .

وحمله « النمر » على كتفه وسار به نحو كوخه الذى كان - لسوء الحظ أو حسن الحظ - فى نهاية مجموعة الأكواخ . وبما أن اليوم يوم عطلة فقد كان أكبر عدد من الناس موجودا فى هذه الأماكن .

وبساطة سرت فى النفوس دون حديث أو خطابة تلك الكلمات التى كانوا يرددونها قبل سماع طلقه الرصاصة :

« الله قد زرع هذه الغابات عندنا . فمن الغريب أن تكون لنا وحوشها وأفاعيها ولغيرنا يكون خيرها كله !! » .

وفى المساء أقفرت الساحة فلم يكن هناك رقص ولا غناء . لكن فى خضم الليل سمع الوطنيون والأوربيون مزمارة الراعى فى المروج . سمعوه يقول شيئا لم يسبق له أن قاله من قبل .

لم تثر هذه النعمة فى الجسد الأفريقى ميلا إلى الرقص ولا الترنج، بل أثارت فيه ميلا إلى سماع ما كانوا يرددونه معا . من قصة ذلك الشاب الذى أراد المعالج أن يحتكر حياته بعد أن يذله على مكان على جبل . ... ثم قصة ما كانوا يقولون :

« الله زرع هذه الغابات عندنا . فمن الغريب أن تكون لنا وحوشها وأفاعيها ولغيرنا يكون خيرها كله » .

وذهب بعض الوطنيين ليروا أين يجلس الراعى بمزمارة . فراوه على المرتفع الذى وقف عليه ساعة الحادث وكانت زوجته إلى جواره وكأنما

حلقت فوق رأسها ذكرى أو قصة حب أراد الحب نفسه أن يخط رسائله فيها .. لا بالندى ولا بالدموع ولكن ببعض قطرات من الدم .  
وعندئذ سألوه :

- ماذا يقول زممارك ؟ إنك تقول شيئا جديدا .  
فقال :

- هو يردد ما كان .. وما يجب أن يكون .  
أحس الوطنيون منذ ذلك اليوم بأنهم جسم واحد قطعت إحدى الآلات أصبعها منه ، وأحس الأوربيون أنهم - حقيقة - وضعوا أنفسهم مكان من طالب بحياة المريض بعد علاجه ، وأن الاستعباد لا يجوز فى قوانين الحياة أن يكون ثمنا عادلا لما يسمونه التنوير .  
ولم يعد الراعى يعزف إلا اللحن « الداعى » وهجر اللحن « الحالم » وكأنما تغيرت فجأة مهمة المزمار والبندقيّة .  
وحتى القطيع نفسه . كان حين يسمع اللحن الجديد يجذب الأعشاب بعنف لينتهى من الرعى وكأنه إنسان قد نفذ صبره .  
على أن الساحة التى كانوا يرقصون فيها إذا هبط الظلام ظلت مهجورة ، فقد كان الجميع مشغولين بقضية غاية فى البساطة .. تلك هى قضية الغابة :

« الله قد زرعها فى أرضهم .. فماذا للغريب عندهم » ؟!

ضييف .. نصف الليل

بعد عدة ليال من زواجى طارذنى كابوس لئيم . لكن ... مالى أقول  
لئيماً ١٩٩٠ .. ذلك خطأ .. فإن الكابوس إذا لم يكن لئيماً فقد شخصيته  
فيصبح عندئذ شيئاً غريباً كما نقول مثلاً « ملاك غير رحيم » .  
كنا نتناول عشاءنا مرتين أنا وعروسى .. ونزلنا أيامها فى فندق  
متوسط من فنادق الجنوب الدافئة الهنية .

وكنا نتعشى مع آخر النزلاء ، وبعد قضاء سهرة فى أى مكان من  
المدينة أعود جائعاً .. فأتعشى ثانية فى الحجرة .. ولم تكن عروسى  
لتشاركنى العشاء ، فقد كانت تحب النحافة وتدافع عنها بكل ما تملك  
النحيفات من قوة ، أما أنا فقد أضحك من هذا .. كنت نحيفاً وأكره  
النحافة حتى فى النساء .. ولعل السبب أن البيت الذى نشأت فيه كان  
كل أفراداه مفرطين فى النحافة ..

وأنام بعد الثرثرة الحلوة التى لا حدود لحلاوتها بينى وبين عروسى .  
لكن .. لا يلبث الموقف أن يكون فظلاً ، فأستيقظ فى أنحريات الليل على  
الكابوس وهو يعبث بى : وأفتح عينى وأنير « الأباжور » الصغير فأرى  
العروس فى أحلام ، لا تزال عليها لمسات واضحة للشباب والطمأنينة ،  
فأوقظها بأى حركة تبدو غير مقصودة لكى تشاركنى  
أرقى .. وعندئذ تقول بصوت شرخه النوم ثم تركه وكأنه خمور .

- حبيبى .. ما الذى أيقظك ؟!

وقبل أن تسمع إجابتي كاملة تكون قد عادت إلى النوم فى اللحظة التى أكون فيها مشغولا بتلفيق أى كلام ، إذ رأيت أنه من غير المناسب أن أقول للعروس : إن الكابوس يطاردنى منذ أننا معا إلى هنا .

لكننى فى الليلة التالية اتخذت قرارا ، فقد غير الكابوس ثيابه .

أخذ يظهر لى على هيئة عربة مليئة بعساكر الشرطة تجرى ورائى فى شوارع مدينة مجهولة لى .. فإذا ما حاولت الهرب ألفت نفسى فى حارة مسدودة والعربة خلفى . والغريب أن لا أحد ينزل لى منها ، ولا يريدون إمساكى باليد ، ولا يتكلمون ، ولا يصوبون نحوى سلاحا . حتى فهمت أن غرضهم الحقيقى هو أن أصعد معهم إلى العربة فى صمت .

و كنت أقول وأنا نائم : « هذا كابوس » وأحاول أن أوقظ نفسى ، وأن أتصالح معه فى الليالى التالية .

لكن المطاردة استمرت .. وعندما استيقظت من النوم كانت خيوط النهار قد تسلت وأضاءت الحجرة ، ولما فركت عيني كدت أضحك ، فقد كانت العربة التى طاردتنى قطعة كبيرة من أناث الحجرة عليها بضعة ثمائيل رخيصة لكنها غريبة .

وعند دخول الليل فى الأيام التالية أحسست أن فى باطنى خوفا دفيناً من هذه الأحلام . فقررت إلغاء العشاء الثانى .. وكم ضحككت منى عروسى وقرقرت وهى تقول لى مازحة :

- حرام ... وتنام بلاعشاء .. وتقول فى المستقبل إن أول شهر

تزوجت فيه اضطرت أن تنام بلاعشاء ؟!

لكننى نمت فعلا بلا عشاء ، ومن المرعب أن يكون النوم  
انتظارا .. ذلك معقول جدا فى اللحظة . أما الانتظار فى النوم فهو  
عذاب وقسوة .

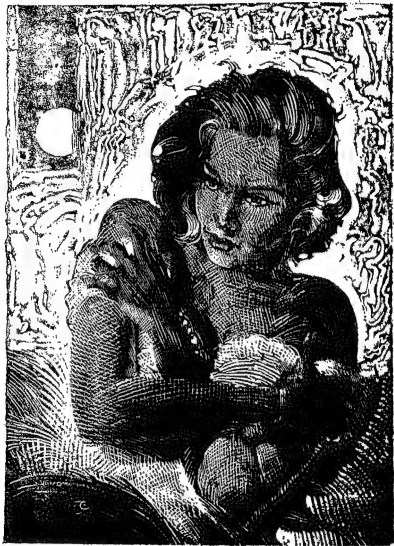
كان عقلى الباطن مشغولا باللعبة الثقيلة .. مشغولا بما سيعمله معى  
هذا الكابوس .. ولو أننى كنت عظيم الأمل فى أنه لن يزورنى بعد  
حذف العشاء الثانى ١١ .

غير أن الذى حدث كان ماثرا لضحكى وخوفى . كنت أشبه  
براكب فى الزحام عرف أن بجواره نشالا فمكنه من أن يسرقه وذلك  
كى يمسكه متلبسا .. فسرق .. وسخر من نفسه .

لم تطاردنى العربة .. ولم يظهر رجال الشرطة الصامتون . ولم أجزر  
فى المدينة المجهولة واهرب إلى حارات مسدودة ، لكن الذى حدث بعد  
حذف العشاء الثانى هو أننى رأيت نفسى جالسا فى الشباك فى خزانة  
المؤسسة الكبرى التى أعمل بها . ووقف أمام شبك الصرف صف  
طويل من العمال لا يرى له آخر ، وعلى كل أن يقدم بطاقته الشخصية  
أو العائلية لكى أصرف له أجره الإضافى . وكلهم فى قمصان  
وبنطلونات .. كلهم ذوو وجوه مكدودة وذقون لم تحلق من يومين على  
الأقل .. كلهم ذوو عيون حادة براقة نظراتها تثقب الزجاج بينى وبينهم  
.. وجوههم جميعا تحمل لى عداء أشبه « بجر الشكل » .

وكلما قدم لى واحد بطاقته ورأيت اسمه ومهنته دفعتها على الرخام  
إليه ثانيا رافضا الصرف له . فينظر متوعدا فى صمت مكين . وينصرف  
ويتقدم الذى يليه فى الصف ولا يتغير الموقف . حتى صرخت : « ما





« حبيبي .. ما الذي أيقظك . »



.. ما هذا ؟ » . فقد كانت جميع البطاقات تحمل مهنة « بوليس سرى » فقامت من فراشى أتصيب عرقا .  
أشعلت « الأباخور » فإذا النائمة جنبى راقدة فى سلام . سألت  
نفسى وأنا ألتقط أنفاسى : « نحن على شدة واحدة ويختلف الحلم ؟ !  
صدق من قال هذا » .

وقمت أنظر من خلال النافذة المقفلة على الشارع الساكن . أنظر  
إلى لا شىء . وفى الحقيقة كنت أحاول أن أجد مخرجاً لهذا الشىء  
المفزع . وأيقنت حينئذ أنه من الجائز أن يكون هناك تزوير ما فى  
المؤسسة وأن رجلى ستجر بطريقة مجهولة نحو هوة مجهولة .  
لكنى ما لبثت أن أحسست بحاجة إلى النوم فاستلقيت إلى جوار  
عروسى وأمسكت بإحدى ذوائب شعرها وأنا بجوارها كأنتى غريق  
بمسك أى شىء صادفة .

فى الليلة التالية ضحكت عروسى أكثر مما يجب لأنها أخذت حينما  
فوجئت بقرار خطير وهو أنتى حذف العشاء كله . الأول والثانى !!  
وشاركها الضحك فقد بدت لى أشبه بينبوع يتدفق ، رشاشه حمر ،  
وطعمه سكر .

وقضينا ليلة هنية استسلمت آخرها إلى نوم عميق بلا حدود .  
وكانت فرحتى فى الصباح عظيمة حين نهضت فتذكرت أن الكابوس  
قد تخلف . فرحت . دخلت الحمام وأخذت فى الغناء . وأخذت  
عروسى توقع لى لحنا بالنقر على باب الحمام .

كان يوما جميلا حقا . كان خلوا من الانتظار . لماذا أحسست أننى مطلق السراح !؟ أهكذا نحن ضعفاء ؟ حلم يلح علينا عدة ليال فيعكر صفو دنيانا ؟!.. ما بالناس إذن بالبحاح الحقائق .

غير أنى قلت لنفسى: هل هناك وهم مطلق ؟ وأجبت : لا بد أن لكل شىء سببا.. ثم.. عدت فنسيت . واندججت فى أفراسى حتى هذه الليلة .

فى هذه الليلة تعشيت مرة واحدة . لكننى كنت جائعا ، وكان الجو مائلا للبرودة . وكانت عروسى فى فرحة من سيعود إلى الوطن بعد غربة ، إذ أنه لم يبق لنا فى الجنوب سوى ثلاث ليال .

أويت إلى فراشى غير منتظر زيارة الصديق الثقيل . لكننى وجدت نفسى قد حوصرت بشكل أغرب ، فقد أصبحت هذه المرة أنا نفسى « رجل البوليس السرى » ، أحمل بطاقة ظهر أنها مزورة . وأمسكنى رجل البوليس سرى حقيقى !!.

ولم تكن الشمس قد ارتفعت على الأفق . وكان الصباح دافئا عذبا . فلبست وقلت لزوجتى النائمة وأنا أهم بالخروج . لا تقلقى.. سأعود حالا . فتحت عينيها وأغمضتهما ثانيا واستمرت فى النوم .

أما أنا فقد ذهبت إلى النيل . كان الجبل فى الشاطئ المقابل أشهب شاخا جميل المنظر . فجلست تجاهه على صخرة كبيرة وحاولت أن أفكر فى مغزى هذا ، فقد كان يخامرني خوف من شىء واحد لا غير هو أن تجر رجلى فى اختلاس لا علاقة حقيقية لى به . وعندئذ سيقولون : « الآن فهمنا من أين تزوج وكيف قضى شهر العسل . أيوه يا عم » !!

جلست أستعرض حياتى ، ففوجئت بشىء كنت نسيت تماما . ولم يكن هذا الكابوس مخلوقا من عدم ولا عائشا فى فراغ بل كان ناقوسا

خافت الصوت يدق فى باطنى . إنه فيلسوف ومؤرخ ومؤلف واحد  
قوى الوعظ والإرشاد !

تذكرت هذا الصباح أننى دخلت قسم الشرطة وأنا طفل فى الخامسة  
من عمرى .. نعم .. ولم يكن السبب أننى ارتكبت جريمة أو ضللت  
الطريق . بل كان السبب شيئا آخر .

لكن المهم هو أننى ارتعت وارتعدت . كنت مثل الريشة الهائمة.  
رأيت ضابطا وشرطيا وناسا يقدمون أوراقا وناسا فى يدهم حديد .  
ونظرات قاسية ، أما البسمات فكانت نادرة لكنها حقا ساخرة .

كنت يومها مع أمى . وفى إحدى الحجرات تلقفنى رجل له شارب  
كثيف وله حواجب كثيفة . وفى صدره شعر كثيف .. تلقفنى وقبلنى  
قبلة كثيفة . قالوا : إنه أبى .. وأن الطريق الوحيد لرؤيتى له ورؤيته لى  
هو قسم الشرطة لخلاف بين الزوجين !!

تهددت على النيل ونظرت إلى الجبل المقابل وصرخت : « آآه » .  
ومن المؤكد أن أحدا لم يسمعنى فقد كان المكان خاليا .. لكننى  
عرفت سر المطاردة . إن لى الآن زوجة .. وهذا الكابوس الكريه جاء  
يذكرنى بشيء هام .. هام جدا .. لأنه متعلق بحياة ناس مهمين . أنا ..  
وهى .. ومن سنحجب .

قلت فى نفسى : « كابوس » . مؤرخ . ومؤلف . وفيلسوف .  
وراعظ أيضا .. وقلت بصوت عال : لن أراه ثانية .. لن أراه . وقد  
حدث .



بَعْدَ الصَّبَّاحِ الْبَاكِرِ

لما صدر أمر نقله إلى القاهرة واجتمع شمله هو وزوجته وأولاده بات طول الليل يسخر من متاعب السنوات التي مرت به بطيبة قلب رجل يرى أن المتاعب تتحول إلى شيء مضحك بعد أن عمر بالإنسان . فبعد العشاء فوجئت زوجته بأنه قام وأحضر خريطة وورقة وقلمًا ثم أخذ يحسب بصوت عال كأنه صوت رجل مغلوب - عدد الكيلومترات التي قطعها إلى مدرسته في الزقازيق خلال السنوات الست وذلك بعد أن راجع الخريطة - فوجدها تزيد على مائتي ألف كيلومتر ، وكان من الممكن أن توصله إلى أقاصى الدنيا . ولو ارتفع هذا القدر إلى الفضاء لخرج نهائيا عن نطاق جاذبية الأرض وأصبح فى حالة فقدان الوزن واستراح من البدانه . ولو غاص تحت الأرض هذه المسافة لوصل إلى سعيير يقترب من سعيير قرص الشمس ذاته . كان يضحك وهو يقول كل ذلك لأنه يقوله بحكم مهنته كمدرس للمواد الاجتماعية. ولذلك حمد الله أنه كان يتحرك فى نطاق محدود ذهابا وإيابا . وإلا لكان بينه وبين زوجته اليوم هذه الأبعاد المخيفة ، وقام فأحضر صورة من النشرة التي تحمل اسمه واسم المدرسة التي نقل إليها وأخذ يقبلها ويضعها على جبينه كأنها صفحات من كتاب مقدس ثم يعيد قراءتها بين فترة وفترة ويعلق بصوته المغلوب على كل الاسماء التي يعرفها من الرجال والنساء المنقولين .

و لم ينم السيد « معوض » طول الليل ، فقد كان موعد ذهابه إلى المدرسة الجديدة هو .. غدا .. فى الصباح .. ( غير الباكر ) ..



لكنه بحكم العادة استيقظ فى الخامسة صباحا . فى الساعة التى كان ينهض فيها قبل صدور نشرة النقل . وطاب له أن يحس بالوقت وأن يداعب مروره . كما يطيب لمن ملئ جيبه بالمال أن يجرب حماقة الإسراف . لذلك أخذ يتقلب فى الفراش وينظر إلى الساعة كل ربع ساعة . ويتصور مشاهد لا تحصى من رحلته التى انقطعت ويتسم ويتهد .

وبعد أن تناول الإفطار ببال هادئ ودحن لفافة فى الحمام لبس أفخر بدله وإن كان محشورا فيها وذهب إلى المدرسة سعيا على الأقدام وإن كانت المسافة بينها وبين بيته لا تقل عن خمسة كيلومترات .

كان عمله هذا أشبه بالتقرب إلى الله بالحمد والشكر . فهو لم يعرف المشى على الأقدام ذهابا إلى العمل فى شوارع القاهرة منذ عشر سنوات . ولذلك ملأته البهجة وشعر باستضعاف شديد ل هؤلاء المنتظرين على محطات المواصلات . فأى مسافة داخل القاهرة - فى نظره - يمكن قطعها جريا لا مشيا .

وراعه منظر حديقة مدرسة البنات الإعدادية التى نقل إليها كأنه لم ير زرا طوال حياته . فاحت منها رائحة ياسمين وأسكرته الرائحة كأنه لم يشمها من قبل ألف مرة فى مدرسة الزقازيق . وخيل إليه وهو يتهدى فى الخوش بعوده القصير وجسمه السمين فى طريقه إلى حجرة ( الناظرة ) ورائحة الياسمين تملأ حواسه - أنه فى حلم . لقد حذفت المشقة من حياته فأصبح ملمس كل شئ ناعما وإن لم يكن كذلك .

واستقبلته عينا الناظرة فى فتور . ماذا كان الأستاذ معوض ينتظر ؟! المسألة فى الواقع مسألة خطأ فى التقدير لأنه كان منتظرا أن تفعل رائحة الياسمين الوافدة من الحوش - فى نفس الناظرة ما قد فعلته بنفسه . غير أنه نسي أنها ليست منقولة من الزقاريق وأن المشقة التى جعلته يحس بهذه اللذات ليست موجودة فى حياتها . ولذلك عندما أحس فتورها أخذ يحببها هو بين وهلة ووهلة كأنها هى الوافدة عليه فنظرت إليه وتبسمت ورأت فى سحنته الطيبة وظروفه الجديدة دوافع تدعو إلى التماس العذر . ثم ما لبثت أن قالت له بعد أن نظرت فى كشف كبير قدمه إليها السكرتير :

- أستاذ معوض ..

انتفض كمن يستشعر خطرا حتى قام واقفا كلميذ ألقى عليه سؤال .  
فاومأت إليه بالجلوس فجلس واستطردت :

- أستاذ معوض .. أنت .. مدرس ..

وأخذت تنقر بالقلم على الأوراق فى الوقت الذى أخذ الرجل يقول فيه لنفسه : إذا لم أكن مدرسا فماذا أكون ؟ ربما وكيل نيابة . وظل صامتا حتى أكملت حديثها :

- مدرس .. زائد عن الحاجة .

- غريب .. ( ومط الحروف مطا غريبا بصوته المقهور ) .

فحملقت فيه بعينين مكحولتين وكأنها تؤنبه لكنه قال فى نفسه :  
« هذه خير من عيون كمسارى القطار ومفتشه ومن عين الناظر القديم الذى تشبهه عيون المخبرين . الحمد لله . أدمها نعمة يا رب .. » وقالت الناظرة :

- مؤكد أنك تعرف معنى كلمة زائد .. لأنك فيما يبدو مدرس عجوز ..

وجعلتها دعاية وضحكت .. وضحك معوض في استرضاء وارتيابك .  
على حين استطردت الناظرة .

- لكننى على كل حال سأدبر الأمر مع ( المنطقة ) ، وعليك الآن أن  
تذهب إلى الثالثة أول ..

وأخذ يصعد السلم حتى وصل إلى الدور الثالث ، وأخذ يبحث بين  
اللافتات وهو يلهث جدا . عن الثالثة أول ، لكن رائحة الياسمين كانت  
تملأ حواسه ، وقلبه يدق بشدة ، وريقه قد جف تماما . كان أسعد رجل  
يلهث . لكنه لم يسمح لخياله بأن يشوه صورة المستقبل .

وأحس بدوار جميل وهو يهبط السلم بعد انتهاء الحصة ، واتجه إلى  
حجرة المدرسين وجلس وكانت خالية تماما .. وبينما هو يتأمل صفاء  
زجاج إحدى النوافذ ويوازن بينه وبين زجاج الريف إذا به يستدعى  
لمقابلة الناظرة التى ابتدرته وهو عند الباب :

- أستاذ معوض . لقد اتصل بى مفتش القسم وطلب أن أخبرك  
بوجوب الذهاب فورا إلى مدرسة الـ ...

كان عرق الأستاذ لم يجف . ومنديل شديد البلل يعيد به مسح عرقه  
وعينيه وسأها :

- أأست منقولا إلى هنا ؟

ردت بلهجة لم يحلها الصبر :

- قلنا إنك زائد .

- يعنى ..

- اذهب يا أستاذ ، يا أستاذ .

وخرج الرجل يترنح ، ذكر الواقفين على محطات المواصلات وشعر  
بمللهم . وعز عليه أن يكون شيئا زائدا . ولم يدرك لماذا تذكر معصم  
إحدى جاراتهم المثقل بالغوايش ! ومط شفته . لكنه سار يقطع طريقه  
فى صبر .

دخل على الناظرة فى المدرسة الثانوية فصرخت فى وجهه :

- حل هذا الموضوع عند المنطقة .

- لكنهم قالوا أن أجىء إليك .

عادت ترد بلهجة ضجرة :

- قلنا المنطقة المنطقة المنطقة .

فاستدار السيد معوض خارجا والعرق يرسم على ظهره بقعتين

كبيرتين . وقبل أن يصل إلى الباب نظر فى تردد وبعينين حائرتين وقال :

- عند مفتش القسم ؟

- المدير العام .

رد فى عتاب إلى بجهول :

- هل أنا مدرس زائد إلى هذا الحد ؟

ففغرت الناظرة الثانية فمها ، ثم استرسلت ضاحكة :

- مدرس ١٢ .. حسبك أحد أولياء الأمور .. وقد كان هنا منذ

ساعات .. آه أسفه يا أستاذ .. لكن الحصة مضى نصفها .. عليك أن

تصعد إلى ثانية ثان .. ( وقالت بسرعة ) بسرعة ..

كان السلم ضيقا وغير مريح . المدرسة قديمة والدرجات

متآكلة .. لكنه تحامل .. كان فى الزقاق لا يصعد الأدوار العليا أبدا .

كانوا يشفقون على بدائته . أما فى القاهرة فقلبها قلب غانية .. وبعد مشقة وصل وهو يلهث . العرق بلل مقعدة البنطلون . ولذلك عندما استدار يكتب شيئا ما على السبورة ضحكت التلميذات .

ولت من حواسه نشوة الياسمين . وشعر بغربة . وقضى معظم الوقت يتبادل ( الحملقات ) مع العيون الشابة جدا . وهو يهدد وهن يسخرن فى صمت .

وهبط الدرج دائخا حتى وصل إلى مكتب الناظرة بعد انتهاء الحصّة وقدم لها نفسه من جديد . فقالت :

— ستبقى عندنا أسبوعا على الأقل حتى تنتهى إجازة السيدة همت .. أقصد إجازة الولادة . وبعد ذلك .. ( وهزت رأسها ) .  
ولم يدر لماذا أحس بأنه زائد جدا جدا . ولم يستطع النظر إلى الناظرة فقد كانت شرسة .

كانت المدرسة الثانية بعيدة جدا عن مسكن السيد معوض ولذلك وقف فى محطة الأتوبيس مثل الناس الذين رأهم من قبل ، بيته قريب من باب الحديد .. كان يذهب فى الصباح الباكر ماشيا ليركب قطار الزقاريق . واليوم كثيرا ما يقف على سلم العربة ويصل متأخرا أحيانا .. وأخذت كلمة ( زائد ) تقلق راحته وتقلل وزنه فى نظر نفسه .. لكنه احتمل هذا الأسبوع . وكان السلم الطويل بالنسبة إليه عذابا لا يعرفه أحد .. وقد حذره الطبيب منه كثيرا . ومن غير تحذير . فهو شىء لا يطاق لذلك فارقه البهجة . وأظله اكتئاب غير عادى عجبت له زوجته .  
كأنما أحس الرجل بالغربة بعد أن فارق الريف .

وقبل أن يغادر المدرسة لعودة السيدة همت من إجازة الولادة جاء أمر من المنطقة بذهابه إلى مدرسة ثالثة لأن إحدى المدرسات نقلت منها إلى الإسكندرية . وكانت المدرسة أبعد . ولما دخلها قالت له الناظرة : أولى أول يا أستاذ .

وصعد طابقين اثنين فقط . لكن السلم على اتساعه ونفاثته كان قاتلا . وعلل السيد معوض هذا بكثرة الجهد . لكنه تجلد وأمعنى ثلاثة أسابيع بانتظار أن يعود إلى المدرسة الأولى تلك التى قابلت فرحته وشم منها أنفاس الياسمين . بانتظار أن يعود مدرسا غير زائد له جدول حصص خصوصى فى حصانة وثيقة مسجلة . وتلاميذ ينتظرونه ... ولم يكن يصدق أذنيه حين أخبرته الناظرة أنه مطلوب لتلك المدرسة فذهب جريا . ولقيته الناظرة بعينيها الجميلتين ورحبت به وطلبت إليه الجلوس حتى يأخذ أنفاسه . والمندبل المألوف الذى شيع عرقا لا يزال فى كفه يمسح به وجهه وعينييه . ثم قالت له وهى تبتسم :

- ستشرفنا هنا مرة أخرى يا أستاذ معوض .

فقال بصوت مغلوب جدا :

- زائد أو .. ناقص ؟ !

وضحك . فقالت :

- السيدة اعتدال حدث لها حادث .. أو .. إجهاض ..

فأخذ يهز رأسه ويعض أسنانه .. بعضها ببعض .. وشعر وهو جالس أنه مسئول عن كل هذه الأحداث . لم الشمل والإجهاض والولادة وفى

القريب شهر العسل . وحضرته صورة زوجته يبطنها المكور وهى أيضا فى شهرها الثامن . لكنها ليست موظفة .

وساد صمت قالت الناظرة بعده : ثالثة أول يا أستاذ !  
وقام وهو يعرف إلى أين سيعدد . ثم تفح رائحة الياسمين فى المكان .  
كان حائرا مكتئبا : « أين الزقاريق ؟ » ، وقبل أن يخرج مبن الحجره قال للناظرة فى بساطة :

- لى سؤال .. لو .. سمحت .

- تفضل .

- عدينى ألا تغضبى من كلامى .

- لن أغضب .

- أنا تعبت هنا . قطار الزقاريق والصبح الباكر وكونى مدرسا لا زائدا ولا ناقصا أحسن عندى ألف مرة من هذه المظاهر .

- وماذا تطلب ؟ هل تريد أن تعود إلى الزقاريق ؟

هز رأسه :

- لا ..

- إذن ..

- أريد أن آخذ إجازة فى الشهر القادم لمدة شهر .

- وكيف ذلك ؟ لابد أن تكون بالخصم إلا إذا كانت مرضية .

... لا أريدها مرضية ولا أريدها بالخصم ، انظرى .. لى شهران الآن وأنا نائب عن سيادات يقمن بأعمال مهمة .. أنت تعرفينها .. السلم قطع قنبى .. وزوجتى فى الشهر القادم ستقوم بنفس هذا العمل .. ستلد .. فلهذا لا تتحمل الحكومة من أجلها ما تحملته من أجل غيرها

وتمنحني إجازة لخدمتها ؟. إنها لا أحد لها . مسكينة .. انظري تجديها  
معقولة ومن باب تكافؤ الفرص .. وخسوبة ماليا ، وإلا كان على  
الجميع ألا يكلفوا الحكومة شيئا .

كانت الناظرة تخلق في ذهول .. بينما عرج في طريقه إلى الفصل .  
كان يصعد السلم وهو يلهث ويضحك ويمسح عرقه بينما الناظرة  
تلهث من الضحك .



الثمرة الخُلوة

كانت هذه هى الشجرة الوحيدة من نوعها فى حدود بضعة كيلومترات مربعة بين الحقول . وهى لذلك كانت شهيرة . كانت أشهر شجرة جميز فى المنطقة كلها . ولم تكن كبيرة جدا .. بل كانت لا تزال فى سن الشباب .

وهى على الرغم من شبابها أيضا كانت شهيرة : تحتها يأكل الفلاحون فى الصيف فى الظل المشبع بالرطوبة ثم يستأنفون عملهم بعد الظهيرة . ومن فوق فروعها فى الصباح قبل شروق الشمس كان أبى يتنقل بحففة من فرع إلى فرع ليجمع الثمار الناضجة فى سلة كلما امتلأت أدلاها إلى الأرض بالحبل فأحتضنها وأفرغ ما فيها ثم أترتها ليشدها أبى إليه من جديد ..

كنت أشم فى رائحة ثمارها نكهة فريدة . ليست مثل نكهة أبى جميز .. كأنه من فواكه الجنة . وأرى فى اللون الأحمر القليل الداكن للثمرة منظرًا يسلب لى ، بين الشفتين السمرائين اللتين خلقتهما أبى من شق الثمار لكى تنضجها الشمس .

كنت أرى أبى يتنقل عليها بحففة من يعرف شيئا ( صنعه ) .. كأنه لم يكن ( زرعها ) بل كأنه صنعها فعرف دقائق فروعها ومواطن الأمن والخطر فيها ..  
لا أدري ..

ربما كان العشاق يلتقون تحتها بالليل والقمر يسامر نجمة  
( الزهرة ) ولا يسمع فى الحقول إلا صرير الجنادب ..  
لا أدرى .. لماذا قال كل الناس إن ثمرها حلو؟ .. هل لأنها من  
الأشجار التى لم تشهد فى الريف - تحتها - ولو لمرة واحدة حدوث  
جريمة ؟

لا أدرى ..

حتى إن أبى كان قد حرم فروعها على المنشار تقريبا . فكان إذا ما  
احتاج لبعض الأدوات الزراعية فإنه يتصرف .. لكن لا يقطع منها فرعاً ..  
لا أدرى ..

هل نرث حب الأشياء ولو كانت بلا حاسة عن آبائنا ؟ فقد ورثت  
حب هذه الشجرة عن أبى كما ورثت حب الحقل الذى زرعت على  
رأسه ، وكذلك حب الظل .. هذا الظل ظلها .. أقصد ذلك ..  
ولما كبرت عرفت من خلال إحساسى هذا سر الحب .. فما الفرق  
بين شجرة وحقل ووطن ؟ ليس هناك فرق مطلقاً ما دام الكل يرمز  
للتراب الذى منه خلقنا فى هذه الأرض .  
لا أدرى ..

كان أبى يفتل تحتها الحبال ويجدل تحتها الخوص ويفرز تحتها القطن  
قبل أن يعبأ فى الأكياس ويحمل إلى المخزن . وكم رأيت أخواتى البنات  
يغنين تحتها ، وكم نصبت مرجيحة من حبل كبير وسبحت به فى  
الفضاء وفى ظلها . وكم بقرة من أبقارنا ولدت تحتها وسمعت ثغى  
الحيوان وهو ينطق بالحنان فى ترجيع صوته والنفخ من منخريه واللبونة

( جوليت فوق سطح القمر )

فى نظراته وعينيه . يئيل إلى أن تحت هذه الشجرة لم تقع تحتها جريمة ما .  
كان كل شىء حولها مثمرا . حتى الظل نفسه .

وحدث أن غبت فى الجندية مدة ليست بالقصيرة . أولى لياليها  
أذكرها . عندما كنا مجموعة كل واحد منا يسأل من معه عن بلده  
وأهله . ولما انقضى النهار فى تدريب عنيف وتناولنا عشاءنا ثم أوبنا إلى  
مضاجعنا عادت بى الأحلام إلى ظل هذه الشجرة .

وكان طيفها فى ليال كثيرة يمشى جنباً إلى جنب مع طيف أمى  
وأخواتى وأبى . وطعم ثمارها يملأ ريقى فى الحلم وأنا نائم مثل طعم  
قبلة لا تنسى .

وكثيرا ما سألت أهلى عنها فى الخطابات وكانوا يردون على قائلين  
إنها بخير وعافية فهل تزوجتها ؟

لكنى كنت أشعر أن ما يقولونه لى بعيد عن حقيقة الإحساس  
الإنسانى كله . غير أننى كنت أعجب من عدم تقديرهم لشعورى نحو  
شىء يعتبرونه صغيرا . حتى تصورت ذات ليلة وأنا راقد بين الجنود ماذا  
عسأى أن أفعله لو تناولت يد أجنبية للمس فرع من هذه الشجرة !!!

وكنت أعود إلى قرىتى بين حين وحين . كان أبى يلقانى بوجهه  
البشوش ويقبلنى حتى أحس بطول لحيته ثم يمسح على وجهى وكفى  
وأنا جالس إلى جانبه ويقول لى فى دعاية عميقة المغزى :

- إيه ؟ .. وكيف حالك هناك .. فى الجندية ؟! مؤكداً أنك  
رجل . وعلى كل هى ستكمل نقصك وتعلمك ما ينبغى إذا كان فىك  
نقص .

- وهل هناك أحد يخلو من النقص يا أبى ؟

هز أبى راسه وأطرق ومسح بكفه على لحيته ثم قال :  
- أنا أعرفك . نقصك أحيانا يأتى من أنك إذا أحببت بالغت فى  
الحب . ( وسكت ) وعلى كل فإننا جميعا نتعلم .

وعندئذ سرح خاطرى حول الذين بالغت فى حبهم . وقام أبى  
فاستغرق فى صلاة العشاء وقتا كافيا جدا لأن أفحص أفكار نفسى ، ثم  
عاد فجلس إلى جوارى ورائحة الدعاء والطيب تفوح منه . لكننى ما  
لبثت أن فاجأته .

- أبى . ممكن أن أسرد عليك بعض الذين بالغت فى حبهم . أولهم :  
أمى ..

ولم أستطرد لأن أبى أرسل ضحكة صافية كان الشباب يملوها ، ثم  
نظر إلى بعينين حائيتين وقال مداعبا :

- عظيم . وأنا أحبها أيضا . وأحب معها امرأة أخرى . فهزرت  
رأسى فى حياء لم يلبث أبى أن قطعه فى مرح حلو :

- أحب شجرتك وأحب معها أمك ( ها ها ها ) لكن مالى أقطع  
عليك أفكارك ، أكمل .

قلت :

- وبعد أمى وأبى طبعاً يأتى صديقى فلان .. وتأتى .. آ .. الشجرة  
التي سألتكم عنها فى خطاب فسخرتم منى .

وأخذنى حماس مفاجئ فاستطردت :

- لنا زميل فى المعسكر له صفة غريبة يمشى وهو نائم . إلى حد أننا  
كننا نخاف عليه فى بعض الليالى .. لكننا حين ناقشناه فى هذه الحالة  
التي تتنابه لم يبد شيئا من الأسف بل قال لنا إنه يستفيد منها إذ أنه

يعرف مدى حبه لبعض الناس . وحكى لنا حكاية . هى أنه قد أحب فتاة فى القرية ورغب أن يتزوجها لكن والديه رغبا فى زواجه من فتاة تقرب لهم . ووافق الشاب وفض الخطبة . لكن حدث أن استيقظ ذات ليلة أهل الفتاة التى يحبها على نقرات على باب الدار فلما فتحو وجدوه واقفا .. صامتا .. نائما .. فقاد أحدهم خطاه .. لأنه كان يعرف بعض الحقيقة - فى صمت إلى دارهم .. ثم .. كان هذا سببا فى زواجه من أحبها .

رد أبى فى وقار وبعد تفكير :

- يعنى .. أن الحب لا ينام ١٩

- حتى ولو كان لشجرة . فما بالناس هو أكبر . بالوطن مثلا .. ولعلك لا تصدق يا أبى أننى كنت ألعب فى معظم الليالى تحت شجرتنا التى تعرفها . ألعب فى المنام . كما ذهب ذلك الشاب نائما إلى دار من أحبها . لكن .. مثلا .. آه يا أبى ماذا أقول لقد ذهب شاب وهو نائم فدفق باب فتاة أحبها ، لكن هل سمعنا أن شابا ذهب وهو نائم فقتل شخصا كرهه ١٩ لا أعرف .

رد أبى :

- حسن . لو أنك أهتمت بتعليمك لكنت أكثر سعادة بك . لكن عليك ما دمت حساسا هكذا أن تتعلم فى الجيش صنعة ما .

- أليست الزراعة صنعة يا أبى ؟

- لا أريد لكم أن تتزاحموا على الفدادين . الرحمة تسورت الكراهية . لو تعلمت حتى قيادة السيارات أو طريقة إصلاحها أو أى شئ لكان ذلك فى صالحك .

- وأعيش بعيدا عن الريف ١٩ أنا أحبه .

.. يا بنى .. أنت طبعا تعرف عمك صلاح شقيقى . كنت كلما جلست معه حدثنى عن عالم بعيد يحلم به . عالم غير الحقل والحقل والشجر والطيور . عالم ليس صامتا مثل عالمنا هذا ، بل عالم ملآن بالطرقات والضجيج . وقد أصبح اليوم كما تعرف . مع أنه لم يتعلم إلا صناعة السواقى من الصاج . وأصبح موسرا . منى ستعود إلى معسكرك ؟ بعد يومين ؟

بسلامة الله !!!

ها هى ذى الأيام قد مرت . وتغيرت الدنيا . لكن نصائح أبى لم تفلت من ذاكرتى . فقد تعلمت قيادة السيارات ثم إصلاحها . وبدأ عالمى يتغير .. بدأت أشعر أن الضجة فى المصنع لها مغزى الصمت فى الحقول . لأن يد الله تتناول الإنبات فى الحقول فى صمت ، ويد الإنسان تتناول تحويل الأشياء إلى أخرى فى المصنع فى ضجيج . لكننى لم أنس قرينتى .. وتزوجت منها ، وكنت أسافر إليها بين حين وآخر . حتى حدث أن ذهبت ذات يوم . قابلت أبى فى شيخوخته وأمى وبقية الأسرة .. وجرى بيننا الحديث المألوف والحب والتحية حتى قال لى أبى بلهجة لا تخلو من الغموض : ألا تريد أن تأكل جميزا ، هل نسيت الشجرة التى كنت تكتب السلام لها فى الخطاب كأنها أختك « بهيجة » ؟ ضحككت ، واستطرد أبى . اذهب فكل منها وأحضر إلينا شيئا ..

ومشيت بين الحقول ، المسافة لم تكن قريبة ، وكان الصيف فى عنفوانه والأشجار قليلة على الطريق ، حتى قربت من الحقل فإذا بالدنيا تغيرت .. هناك مصرف يشق . وقنطرة للعبور . وتراب مزاكم . هناك

مناظر تدل على إصلاح جديد . وأشجار صغيرة مغروسة على شاطئ المصرف ..

وتلفت نحو الشجرة الكبيرة التى أقصدها فإذا بها قد لحقها القدر . إذ أصبح موقعها فى وسط المصرف تماما فقطعوها . وهناك جزء من حقلنا قد أخذ للمصلحة العامة ..

لا أنكر أن قلبى قد خفق . وأننى تلفت حولى كالتائه حتى وجدت الشجرة نفسها . أخشابها على الأرض فى فروع ضخمة . بلا جميز ولا ورق ولا مراجيح .

وتذكرت قصة الشاب الذى طرقت باب حبيبته وهو نائم بعد أن حرموا عليه الزواج منها . لكننى تذكرت ماذا أصنع بالحديد . ماذا تصنع يداى به . تضعه فى النار حتى يصير ناراً ثم تستفيد به . وعندئذ نظرت إلى الخشب وسألت نفسى : ماذا يمكن أن نصنع منه ؟! ولو كانت الشجرة واقفة لما حدث هذا . لعادت إلى إحياءاتها كلها لكن .. لقد دخلت هى عالم الصناعة بعد أن كانت فى عالم الزراعة .

وعدت إلى الدار . قابلنى أبى يضحك وهو ينظر فى عيني معتقدا أننى سأبكى . لكن ذلك لم يحدث . ابتسمت : فصافحنى قائلا لى : شاطر . شاطر جدا يا ولد . الحياة ليست ظلا وفواكه ومراجيح وحبا فقط . الحياة يا ولدى مثل السيف .. زينة ، سلاح ، وأداة للحرب .



حُرَّاس عَلَى الزَّمَن

ما كنا نعرف قط ونحن أطفال شيئا من ذلك السر الذى يحمله وجه عم « بسيونى » .. مع أننا كلنا على يقين من أن عم بسيونى لم يتلق شيئا من التعليم .. لكن ملاحظه المطمئنة فى بقطة ، وقامته الممدودة فى استقامة ، وشاربه المنسق بمهارة ، وأعماله التى تفوق الامتياز فى خدمة المدرسة القروية التى كنا بها - كل ذلك جعلنا نفهم فيما بعد . لماذا كان عم بسيونى مطمئنا دائما .

كنا نتمنى أن نرى شيئا يخيفه . ومنظر الخوف على وجوه الناس منظر ليس غريبا . إنه يقع كل يوم وربما رأيناه فى يوم واحد عشرات المرات . لكن منظر الخوف على وجه شجاع هو ما كان يلهب الشوق فى خيالنا .. لأن وجوهنا نحن الصبيان كانت علامات الخوف والأمان تتراوح عليها باستمرار طول اليوم المدرسى كما تتراوح السحب فى سماء الشتاء .

وكان عندنا فى المدرسة شيخان خيفان للغاية . أحدهما الناظر ، وثانيهما الناقوس !

وكنا جميعا نتعامل معهما نحن وعم بسيونى .. لكن شجاعة عم بسيونى مع الناظر كانت تلقى فى قلوبنا بذورا يومية من الحبة والتقدير له ، فكان إذا ناداه من بعيد طالبا كوبا من الماء رأينا شيئا أصفى من البلور على كفه الريفية الضخمة النظيفة يسعى بها فى طمأنينة ونشاط لا حدود لهما ، على حين كان بعضنا يتأمل المنظر وهو فى دهشة

شديدة من أن الكوب لم يسقط من يد عم بسيونى لمجرد حملقة الناظر فيه بعينه .

أما هذا الناظر فلم نكن نعرف الطريق الذى يصل به إلى المدرسة يوميا وبالتأكيد .

كان مولعا بالغموض ولعله كان - وهو المربى - يدرك أن الغموض بالنسبة للصبيان يثير خيالاتهم لصالحه فهم يتوقعون رؤيته فى كل مكان أو كل زمان ، والمدرسون كاملو العدد ، وأبواب الفصول مفتوحة ، والحدوش مرشوش . وسلسلة الجرس تبحث عن يد تشدها لحظة .. لذلك كانوا يحاولون استغلال أوقات الصباح التى يقضونها فى الحدوش الداخلى أو الخارجى - فى استذكار دروسهم فى الوقت الذى تكون الشمس فيه زحفت على حديقة المدرسة ودأبت أشجار الرمان المرشوشة ، تلك التى كانت عصيها اللدنة تستعمل عند اللزوم فى يد الناظر المهيب .

وفى نفس الوقت كان الناقوس النحاسى الضخم يبدو معلقا فى جلال وصمت تتدلى منه سلسلته الحديدية بلا حركة ، وقد غطى سطحه الذى يشبه القبة صدأ النحاس المعروف . لكن هذا الصدأ لم يؤثر على الصوت ولا على ما يتركه الصوت فى نفوسنا نحن الصغار .

وفى الوقت نفسه أيضا كان عم بسيونى يبدو سريع الحركة يجرى فى كل ركن من المدرسة لأنه هو العامل الوحيد فيها . كان يحاول فى تبثل أن يرسم الملامح الأخيرة للجمال الذى يصنعه بيديه كل يوم . فالحدوش مرشوش . وحوض كبير من الألمنيوم خاص بهيئة التدريس قد

امتلاء بالقلل المائى النظيفة التى تستوقف كل نظر. وروائح متعددة المعانى تنبعث من أرض الجنية الصغيرة والنباتات المروية .

وأخيرا يصل الناظر من طريق لا يخطر على بال التلاميذ .. من بين الحقول أو من وراء المباني أو من الطريق العام أو على دابة أو سيارة . لكن التلاميذ كانوا يعرفون الطريق الذى يصل منه فى يوم ما إذا سمعوا أصوات بعضهم هناك ترتل فى اجتهد مفتعل أو خائف بعض آيات من القرآن أو شيئا من المحفوظات أو العلوم .

ويستقبله عم بسيونى أثناء مروره عليه وهو يعمل بوجه غامض مشغول ، خال من الترحيب والخوف ، ملئ بالاحترام والأمان .

وفى هذه اللحظة يكون كل شئ على وشك الوصول إلى الذروة ، على وشك الاكتمال .. فالتلاميذ يصيحون بما يحفظون أو بما يريدون حفظه .. والجنية الصغيرة ازدهت بكل الألوان ومعظم الروائح .

أما عيون التلاميذ فهى تدور فى تطلع فضولى مستمر نحو الشئيين المهيئين فى هذا المحيط الجميل المخيف ، تتطلع تارة نحو الناظر وتارة نحو الناقوس ، فيرون الرجل منتصبا بقامة فذة ورأس كبير فى سلاملك داخل وفى يده ساعة جيبه الكبيرة ينظر فيها كأنه بعد الثوانى . وعلى وجهه الأسمر هدوء من يعرف الخوف فى نظر الصبيان .

ثم يرون الناقوس فى غمار صمت عجيب .. ولعل بعضهم كان يسأل نفسه : « أين تكمن كل هذه الجلبة والضوضاء فى هذا الشئ ؟ » إنه أشبه بشلال يتدفق منه الصوت .. فأين يختزن كل هذا ؟ إن الفلاحين فى الحقول يعرفون الوقت بصليله .. وكذلك الأمهات فى

الدور . وكثير من الطيور تفرغ وتترك الأشجار التى وقفت عليها ، ثم تعود بعد أن يصمت .

وبعد هذا وذاك يقع بصرهم على عم بسيونى الذى ينظر فى ساعته أيضا ، إنهم يضبطون الوقت .. أحدهما فى الداخل وهو الناظر والآخر على مقربة من الناقوس المدقوق فى السور .

وتحين لحظة معينة فيرتفع صوت الناظر من هناك قائلا :

- تمام يا بسيونى ؟

فيرد عليه صوت من هنا :

- تمام يا حضرة الناظر !

تمتد الذراع المشمرة التى لوحتها الشمس وقتل العمل عضلها فتمسك بالسلسلة ، ويميل جذع عم بسيونى ويعتدل على التوالى فتعلق عيون التلاميذ بالناقوس وهو يرسل صوتا من الممكن أن يستمر إلى الأبد . عمقه يحسه القلب قبل الأذن وصوته لا يقول كلاما بل يوحى بكل ما سيلقاه كل صبي على حدة داخل هذه الفصول من كلمات ثناء أو عتاب أو عقاب . وربما كانت صلصلته فى ذهن أحدهم تقرأ جدول الضرب فتؤكد الحفظ لذلك التلميذ ، أو ربما حملت كلمات مخيفة أو صريحة مدرس فى مجموعة لا تريد أن تفهم .

والغريب أن عيني الناظر كانتا تراقبان باستمرار أرجحة الناقوس وهو يصلصل . هل كانت هذه لذة شخصية . أو كان الناقوس لا يستطيع أن يؤدي مهمته على الوجه الأكمل دون أن ترقبه عينا الناظر اللتان تشبهان عيني النسر ؟

. وكان عم بسيونى يحملق فى قلب الناقوس وهو يدق . بينما الصفوف .. صفوف التلاميذ أخذت فى الانتظام . ويدخل الناظر ساعته إلى جيبه ويراه عم بسيونى فيكف عن القصر ، ويأخذ الصوت النحاسى العميق فى التلاشى ساحبا وراءه أذبالا من صدى الصوت . وعندما يسيطر الصمت تبدو الحديقة لأعين التلاميذ وكأنها صحت من النوم ، وتحوم فى سماء المدرسة بعض الطيور عائدة إلى أشجارها .

وعندئذ يبدأ صوت الإنسان فى الظهور بعدما كف صوت الناقوس . يبدأ أحد المدرسين فى القاء أوامر بينما قامت الناظر فاهرة فى السلاملك الداخلى وعم بسيونى يجول باحثا عن عمل جديد . كان التلاميذ يستمعون فى اليوم الأخير من العام الدراسى إلى دقات الناقوس وينظرون إلى جسمة العظيم المعلق .. ولعل بعضهم كان يقول فى نفسه :

- غدا ينتهى كل شىء .. ويتأجل للعام المقبل .. غدا سيلزم الناظر قريته البعيدة .. ويلزم عم بسيونى حجرته المحبوسة فى هذه المدرسة .. أما الناقوس فستبقى سلسلته مدلاة هكذا كضفيرة من حديد لا تمتد إليها يد .. حتى يجمع القطن وتغطي الحقول أعواد طويلة من الذرة وتصفر هذه الشمس الحمراء .

وقد حدث . فبدأت المدرسة مثل خلية بلا نحل ولا إبر ولا غسل .. لا فرق بينها فى المنظر وبين وابور طحين فى إجازة .

ولعل عيني الناظر كانتا تحملقان فى مستطيلات « الدومينو » على منضدة فى الخلاء حيث يلذ له أن يلعبها هو وبعض أصدقائه .

ولم تعد الساعات اليومية تنقش فى الأذهان البيضاء نقوشا تجعل  
الرءوس ثقيلة الوزن .  
أما عم بسيونى فكان يقطع الوقت خارج المدرسة مع بعض أئداده  
فى ألعاب قروية وثرثرة حصيلتها صفر .  
ولعل أحدا من الناس سأل نفسه عن النتيجة عندما تفرقت هذه  
الأشياء المجتمعة . . عندما غاب الناظر وغاب التلاميذ وسكت الناقوس  
وكف عم بسيونى عن النشاط المألوف .  
ولعله أيضا قد أجاب قائلا : إن العين تغمض بالليل لكى نرى جيدا  
وقت الصباح .



لكن عددا من التلاميذ جالوا حول مدرستهم بالبنهار فأروها غير التى  
يعرفونها ، ثم تسلقوا السور الخلفى وألقوا نظرة على كل شىء فى  
الداخل فأروه غير الذى يعرفونه . حتى الجنينة كانت فى حالة حمول ،  
أما أبواب الفصول فكانها موصدة من زمن طويل .  
وأخيرا حانت منهم التفاتة نحو شىء له فى قلوبهم وزن أثقل من  
وزنة الثقيل ، نحو الناقوس .

ضحك بعضهم : « هذا الذى كان يترك قلوبنا تدق كل  
صباح !؟ ما له اليوم قليل القيمة !؟ » .

وعندما نزل الظلام وأوى الناس إلى مضاجعهم عادوا .  
كان عم بسيونى فى حجرته المحبوسة وحيدا . مثقلا بالنوم بعد عشاء  
جهزه بيده من لحم وأرز يوم سوق القرية . كان قد بدأ يلحم . كان

هناك فى المنام شىء يخيفه . لأنه لم يتزوج حتى فى هذه السن وهو مهدد بالوحدة والظلام .

شىء ما فى الحلم كان يهاجمه . له صوت فظيع ، صوت ضخم ، واستيقظ ، فتح عينيه فزاد انزعاجه . فضل لو أنه بات سائما فى خوف الأحلام فذلك أخف من تلك الحقيقة .

هتف فى سره : « يا ربى ! ما هذا ؟ ما هذا الذى يدق الناقوس فى هذه الساعة من الليل ١٢ » .

دق قلبه بقوة آلاف الدقات من آلاف التلاميذ فى ساعة الصباح وأيام الامتحان ، وأراد أن ينهض من مرقده فلم يستطع . ذلك الذى لم يخف من ناظر المدرسة لحظة ما . ولم يدرك كيف كانت القلوب تادق من هذا الناقوس ؟

وأخيرا نهض . وخطا فى الظلام . وكان الناقوس يدق متلعثما . نعم كأنه نسى لغته . أو كأنه يخاطب من لا يفهم .. ما يقول .. وعنادئذ انتصب عم بسيونى وهتف بكل قواه : من هناك ١٢

وبعلها احتبس صوته ، لكن الغريب أن الناقوس صمت وأخذ الصدى يسحب أذياله فى الليل .. فتشجع . وجرى نحو السور . أرهف السمع . فوصل إلى أذنه ضحكات صغيرة عرف ممن تكون . لابد أنها من الصبيان الذين أرادوا أن يسمعوه الصوت الذى أسمعهم إياه ..

وأحضر مصباحا فرأى جبلا إضافيا قد ربط فى السلسلة ، وبكرة على الحائط لتساعد على الحركة .

ضحك الرجل ثم عاد إلى مرقده .



وانقضى الصيف .. وعاد الناظر والساعة والمدرسون ورش الحوش .  
وضحكت الجنينة . وملئت القل .

ووقف عم بسيوني على مقربة من الناقوس . والناظر هناك فى  
السلامك الداخلى .

ونظر فى ساعته وقال كلمته المألوفة :

- تمام يا بسيوني ؟

فرد الرجل وعلى فمه ابتسامة يعرف سرها بعض التلاميذ .. بعض  
الذين عبثوا بدق الناقوس فى ليلة ظلماء . رد قائلا :

- تمام يا حضرة الناظر .

وأمسك بالسلسلة ، وحرك الناقوس . وكان فى هذه اللحظة يبعث  
بشلال جديد من الأصوات أعلى من كل سنة ، فدقت قلوب كثيرة .  
ولم يكف الرجل الذى كأنما نسي نفسه حتى أشار إليه الناظر بأن  
يسكن .

وبعدئذ ارتفع صوت مدرس شاب يصدر أول أمر له فى العام الجديد  
قائلا للتلاميذ :

- إلى الأمام .. سر .

وساروا إلى الأمام .



لِكُلِّ شَيْءٍ أَوَانٌ

بين حين وحين كان يرى فى منامه أنه يفعل شيئا خفيفا .. شيئا خفيفا لكنه لا يخلو من تساؤل . وعندما يستيقظ من النوم يتلفت حوله فى خوف ويقلب يديه ثم يشعل النور ويستلقي فى الفراش حتى يعود قلبه إلى هدوئه .

ومن خلال أهدابه المسبلة كان يتفقد حمجرة نومه الواسعة ذات الطراز القديم الذى يحوى الجمال والوقار ويوحى للداخل بأن أرواحا قوية ( مهذبة أو غير مهذبة ) لكنها قوية على كل حال ، عاشت يوما ما فى هذا المكان .

ومن خلال أهدابه المسبلة يستذكر تفاصيل حياته . ثم أيامه القريبة ثم .. لياليه الأكثر قربا ، ولا تلبث تقطيعه عدم الرضا أن تغطي جبينه . وتظهر على الشفة . لكن أنفاس هذا الشاب لا تلبث أن تنتفخ .. وينام .



وفى اليوم التالى تأخذ الحياة كما تأخذ كل حى . وهو فى طبيعته الشابة مزدوج التركيب .. وربما كان من النوع الذى يشعر بوجوده الشخصى دائما . فهو لا يغيب عن ذاته أبدا .. أعنى أنه عندما يعمل عملا ما .. طيبا أو غير طيب يصبح أو يمسى أثناء هذا العمل وكأنه شخصان لا شخص واحد .. شخص يعمل وشخص يراقب أو يحكم على عمل الثانى .. وليس من الضروري أن ينفذ أحدهم

حكم الآخر عليه . لكن المهم ، هو أنه يعرف وزن ما يعمل . ومقدارة بالضبط فى ميزان الحسن والقيبح ..

\*\*\*

كان أبوه رجل شهوات منطويا على نفسه . كل عالم هو ذلك العالم المحسوس . يملك من المال ما يغذى به رغباته . له عينان كعيني صقر ورأس كبير كثيف الشعر ضيق الجبين . مات هذا الأب ولم يتجاوز الأربعين إلا قليلا . وقالت عنه زوجته لابنها هذا :

- إنه كان مثل شمعة تذوب .. ليس لأنها مشتعلة تضىء بل لأنها مغموسة فى ماء يغلى . ولم يكن فى استطاعة يد أن تمتد إلى هذه الشمعة فتنتشلها .. كان الماء حارا وحتى الشمعة نفسها كانت تنزلق من اليد بسرعة إذا ما أمسكتها ..

وفكر الشاب : هل فيه شىء من أبيه ؟؟

لكنه ما لبث أن استبعد هذه الفكرة . وآمن بالإرادة على أنها أساس للسلوك الأخلاقى . ولذلك فقد كان أشبه دائما بشاين .. أحدهما يعمل والآخر يحكم على العمل ..

\*\*\*

وفى إحدى الليالى عاوده الحلم .. إنه مفزع مخيف .. شعر كأن يده مغموسة فى جمرة صغيرة .. وهذه الجمرة مصنوعة على هيئة عين .. نعم .. واستيقظ مذعورا جدا وهو يشعر أن يده تكاد تحترق .. وسرعان ما أشعل النور ..

وكان البيت خاليا . رابضا وحده فى هدوء مطمئن فى أكناف الصحراء ، والأم فى إقامة عند إحدى بناتها لأنها تلد . والخادم يعانى رمدا فى عينيه اللاتيتين . وليس هناك إلا البواب والكلب .

لم يدر لماذا أحس بحاجة إلى الصراخ . هو يعلم عن نفسه كما يعلم عنه الناس أنه شجاع القلب إلى درجة غير طبيعية . وكثير من الحقائق المفزعة لم تنهز لها أعصابه .. مثل تلك الليلة التى انقلبت به سيارته وهو عائد وحده من سفر مريب .. وكانت مؤخرة السيارة فى التزعة وهو غير مستطيع الخروج . وعندئذ أسلم أمره إلى الله وانتظر الموت بشجاعة . لكنه فوجئ بمن يثبون إليه وينقلونه وعلى الطريق أخذوا منه نقوده الكثيرة وسمع أحدهم يقول : انظر نصف عملنا لله ونصفه للشيطان . وقهقهه فأحس كأن هذا خلاصة لخلاله وجزء من أفكاره . وواصل هو السير إلى أقرب مدينة بجلادة لا نظير لها ، وكان شيئا لم يحدث له .

\*\*\*

لكنه عندما استيقظ هذه الليلة فزعا وكان يده متروكة بالنار فى جمرة على هيئة عين - عندما حدث له ذلك كان يرتجف .

وأشعل النور ونظر فى الحجرة الواسعة . وقعت عيناه على صورة أبيه .. رأى عينيه على صورة جديدة ، تومضان فى الصورة الزيتية كأنما انبعثت فيهما الحياة . ونظر إلى شعره الكثيف وجبينه الضيق . وخيل إليه أنه رأى ابتسامة غريبة متحيرة على شفثيه .

وعاد يتذكر تفاصيل حياة أبيه .. زوجاته الثلاث اللاتي كن يدبرن له مع كل فرصة لهما وهموما . وأسفاره إلى أماكن لا ييوح باسمها ..

ثم انصرفه عن الناس وحتى عن صحبة أولاده . ثم موته بطريقه  
سريعه .. كما تحطم كأسا من الزجاج الرقيق .. والدموع الكاذبة التي  
ذرفت عليه يوم وفاته . و ... و ...

وشعر كأن هذا كله موجه إليه . ثم ساءل نفسه عن سر ما يحدث  
له بين حين وحين ولكنه لم يهتد .

جلس مرة مع زميل في القطار يوم كان مسافرا . وكانت العربيه شبه  
خاليه . ولم ير الجالسان بدا من تبادل أطراف الحديث وكان زميل  
السفر رجلا مكتملا تبدو عليه الخنكة وطيه القلب وعلامات المعرفة .  
وامتد الحديث حتى تناول الشباب ومشاكلهم والعمر الغض الخصب  
الذى قال عنه الزميل المسافر : إنه أشبه - أحيانا - بأرض خصبة يزرع  
فيها أصحابها أشجار المر .

أطرق الشاب وسرحت أفكاره . وتذكر أباه وتذكر نفسه ثم قال  
للرجل .

- سيدى .. إننى أريد أن أقول لك شيئا يحيرنى .. إننى أرى بين حين  
وحين فى منامى أننى ..

وسكت الرجل بعد أن سمع قوله .. وأطرق .. ثم رفع راسه وألقى  
نظرة على أرض جرداء وقال للشباب :

- كابوس .. كابوس ..

ضحك الشاب فى استخفاف مكتوم ثم قال :

- طيب .. ذلك ما أعرفه ..

قال، الرجل :

- هناك كابوس يكون من صنع الطعام والشراب يعنى من زحمة المعدة .  
وهناك كابوس يكون من صنع شىء آخر يعنى من زحمة الضمير ..  
( ويحملك فيه ) هل ضميرك مزدحم ؟  
هو الشاب رأسه فى خجل وحيرة :  
- آه .. ربما ..

- أيام كنت شابا كنت أحاول بين حين وآخر أن أدخل ... هل  
تعرف إلى أين ؟ .. إلى داخل أعماق نفسى .. وأقوم بعملية تنظيف لتلك  
الأعماق التى لا يراها إلا صاحبها وحده .. ولن يكون  
هذا التنظيف كاملا تماما .. لكنه على كل حال لا يدع الأخطاء تتراكم ..  
وقال الشاب فجأة :

- هل أغير حجرة نومى كما أشار بعض الناس ؟  
فضحك الرجل وسأل :

- لماذا ؟ هل فيها ما يثير همومك أو ذكريات لا تحبها مثلا ؟  
قال الشاب فى خجل :

- ... ليس فيها إلا الأثاث المألوف وصورة لأبى ..  
لم يرد الرجل .. أحس أن الحديث بعد هذا فضول .. فقال للشاب :  
- حاول ...

\*\*\*

وعندما عاد لم يفعل شيئا . نسى كل ما دار . واسترسل فى حياته ..  
لكن الرؤيا ما لبثت أن عاودته ولما استيقظ فى هذه المرة . رأى السبب  
وعرفه أكثر من المرات السابقة .



كانت أصبعه السبابة فى فمه . وكان يعض عليها بأسنانه  
شديدا .. وحرارة أنفاسه مثل حرارة الحمرة .  
وصرخ كأنما يريد أن ينقل يده من فم رجل آخر . فلما أفاق وأشعل  
النور ونظر إلى صورة أبيه . رأى عينيه وكان فيهما دموعا . وعلى فمه  
ابتسامة حزينة . وكأنه يريد أن يرفع يده إلى فمه . هو الآخر — ليعض  
أصبع الندم ..  
وعندئذ أدرك الشاب أن لكل شيء أوانا . فحرص على ألا يفوت  
الأوان .



ضَيَّاعٌ وَأَمَلٌ

على مقربة من خضم المولد وفي آخر شارع زين العابدين بالسيدة زينب ، تجمع عدد من الناس حول طفلة صغيرة تبكى . من النظرة الأولى للجمع والموقف يتبادر إلى الذهن أن هذه الطفلة ضلت الطريق إلى البيت . كانت تلبس فستانا صيفيا بلا أكمام وشبشبها لا بأس بحالته . أما شعرها فكان أصفر مصبوغا ليأخذ لونا غير لونه . وهى فى الثالثة من عمرها . ليست مرحلة الشعر . عليها وسامة لوروعيت لبدت أحلى مظهرها .

كل ما تعمله الطفلة على حافة الزحام أنها كانت تبكى . لم ترد اسم أحد غير اسم أمها : « ماما .. ماما .. عاوزه ماما » . ويبدو أن الموقف ظل نوعا ما . لأن دموعها غسلت جزءا من وجهها فجعلته أكثر نظافة ولهبت جزءا آخر . وكانت كفها مطبقة على قرش . ونظراتها فى كل اتجاه توحى بأنها سارت مسافة أحست معها أنها مغترية .

كان هناك ناس يجتمعون . رجال وغلمان وصبايا وسيدات ، لكن كان الاهتمام باديا أكثر على وجوه السيدات . فأول من سأل الطفلة عن اسمها كان سيدة عليها ملاءة . جلست القرفصاء على الأرض وحملت فى الطفلة ثم قبلتها وربت عليها . ولما سألتها عن اسمها

أجهشت الطفلة بالبكاء . كأنما تذكرت أمها . أو كأنما رأت سيدة حسبتها أمها أول الأمر ثم خاب الظن . وعندئذ لم يسع السيدة إلا أن تحتضنها وهى تربت عليها وتسألها عن اسمها من جديد .

تقدم رجل مسن جدا لعله رأى فى الطفلة صورة من حفيدته . ثم أعلن محتجا :

- لا داعى للأحضان . دعوا الطفلة فى أمان وعلينا أن نحاول معرفة عنوانها أو اسمها .

نظرت إليه السيدة الشابة بعينين مكحولتين نظرة قاسية ترد بها على سوء ظنه ثم قالت :

- هل تظن أنى سأخطفها . يا رجل يا عجوز . أنا أعمل لوجه الله . لكنك خرف ..

ثار الرجل وثار معه رجل آخر ، وتناثر على حوافى المجموعة كلمات متداخلة لكن الرجلين قالوا كلاما حاصل جمعه . أن كثيرا من الذين يبدوون الشفقة فى مثل هذه المواقف نصابون ..

ولم يسع السيدة التى كانت تحدث الطفلة إلا أن تنسحب محتجة . وفى اللحظة نفسها حل محلها شاب من أولاد البلد يبدو أنه من أصحاب المهن النظيفة ، يبدو أنه حلوانى أو لبانى مثلا .. وجلس القرفصاء مكان السيدة التى انصرفت . وسأل الطفلة أن تكف عن البكاء .

وفى فترة من فترات الخمود سألها عن اسمها فصاحت من جديد باكية قلقة العينين : « ماما .. ماما ... عاوزه ماما » . سأل الرجل :

- ماما اسمها إيه يا حبيبتى .

- اسمها .. ماما .. عاوزه ماما .. ماما ...

- اين بيتكم يا حبيبتى ؟

- اللي فيه ماما .. ماما .. ماما .. عاوزة ماما ..

قدم إليها الرجل من أحد جيوبه قطعة من الحلوى فرفضت الطفلة أخذها .. وعادت البكاء . وتهامس ناس على حوافى المجموعة بكلام حاصل جمعه : « لماذا لا يكون هذا الرجل نصابا ؟ لماذا لا تكون قطعة الحلوى هذه فيها مخدر ؟ لماذا لا يحملونها إلى قسم الشرطة هو على مسافة ربع ساعة !؟ » .

على أن الطفلة كانت رافضة كل شىء . تجيب على كل سؤال بالحين . ولا ترضى بيتها ولا أهلها بدلا . وظل الرجل الجالس القرفصاء أمامها يحاول أن يستخلص شيئا لكن الوقت طال . حتى سمع صوت شاب يقول بصوت عال جدا منفعل جدا :

- يا ناس . يا عالم . إلا تلاحظون شيئا ! .

فنظروا إلى الطفلة ثم إليه . فاستطرد ..

- ألا تلاحظون أن الطفلة فى أحد أذنيها فردة قرط والأخرى خالية، وأن فى يدها قرشا قد أطبقت عليه بكفتها ؟ لماذا لا يكون أحد الناس قد خدعها عن بيتها وقرطها وسحبها بعيدا . كل منكم يجب أن يعمل العمل الذى لا يمس فيه شبهات . ولكن .. أنتم كلكم مستعجلون .

عندئذ اعتبر الرجل الجالس القرفصاء أن الاتهام موجه إليه فنهض واتجه نحو الشاب وقال له :

- بدمتك ودينك أنت رباية مدارس ؟

قال الشاب :

- هل أنا قد غلظت ؟

- أنت تهمني . ( وثار ) أنا تاجر . أنا حلواني أكسب ذهباً . ما هذا ( الحلق ) الذى تتكلم عنه .

تدخل مجهول تدخل أبناء الحلال قائلًا : لا داعى للعراك . المهم أن نرد الطفلة إلى أهلها .

وانصرف الحلواني وهو يحس بمرارة الموقف مستعينا من فعل الخير على حين تقدمت سيدة مسنة . يبدو أنها من ربات البيوت ، ويبدو أنها جدة .

وجلست القرفصاء أيضا وساقاها ترتعشان وقبلت الطفلة وسألتها عن اسم أبيها . فردت الطفلة وقد رفعت درجة صراخها : « أنا عايزة ماما .. ماما .. » . فقالت السيدة بتأثر طفح به وجهها المهضوم :  
- يظهر أنها يتيمة الأب .

فصرخ شاب :

- لنذهب بها إلى قسم الشرطة ولا داعى ( للبحث الاجتماعى ) .  
ولما قرب منها وأمسك بيدها رمت الطفلة بنفسها على الأرض وأخذت تتمرغ . فصرخ فيه بعض الواقفين :  
- خل عندك شفقة . لا بد أن بيتها قريب .  
ثم عاودت السيدة العجوز استجوابها :

- ماما اسمها إيه ؟

وكان ذكر كلمة ( ماما ) دائما سبب لسعة للطفلة لا تجيب عنه إلا بالصراخ . وبكت السيدة العجوز وضمت الطفلة إلى صدرها فنفرت منها .

خيم على الجمع سكون كأنما حيرته الطفلة . أخذوا يستمعون إلى  
نشيجها المتهالك الذى بدأ يتعب وكل منهم يفكر فى أنه كان من الجائز  
جدا أن تكون هذه ابنته أو ثمت إليه بصلة ما .

ولما خيمت على الجميع هذه الشاعرية المؤمنة زاغت عين الطفلة  
وأحست بالضياح الصامت بعد الضياح الصارخ . وتنحس ناس ، وأشعل  
بعضهم سجائر وراحوا يدخنون .

لكنهم ما لبثوا أن رأوا موكبا صغيرا يأتى منحدرًا إلى آخر شارع  
زين العابدين وهو قادم من ناحية الميدان . وكان الموكب غريبا : عدة  
نسوة وأولاد وأمامهم مناد يعلن أن طفلة قد ضلت .

وتنفس القوم الصعداء ولم يصبروا حتى يأتوا إليهم فجرى بعضهم  
لاستقبال الموكب .

ولما التقى الموكب ومستقبلوه أخذوا جميعا يحركون وفى مقدمتهم  
النسوة . والمنادى يتعثر خلفهم . وتحلق الجميع حول الموكب ولم يظهر  
من الطفلة شيء كأنها مدفونة تحت ركاب بشرى .

وهتف رجل وهو يسير مبتعدا :

- الحمد لله .

وقالت امرأة :

- يا روح مامتها ..

لكن الموكب أخذ من جديد ينفرج قليلا قليلا عن الطفلة التى  
سكنت تماما وعراها ذهول . إذ اكتشف الباحثون أنها ليست الطفلة  
المطلوبة .



ومشى النسوة وقد ارتفع بكأؤهن واستأنف المنادى النداء على  
الطفلة وأرهفت الطفلة سمعها فى صمت وكأنها مأخوذة . وما كاد  
الجمع يبتعد حتى عاد القوم إلى ما كانوا فيه . أحدهم يستجوب .  
والأخرى تلوم . وثالث قد يئس ومشى . وعندئذ كانت الطفلة قد  
استردت أنفاسها واستأنفت بكاء شديدا وهتافا باسم أمها .  
ودخل على المجموعة فى هذه اللحظة رجل فى منتصف العمر . يبدو  
عليه أنه متعب وأنه لا يملك وقتا . وقال بسرعة :

- ما الحكاية ؟

فقالوا له الحكاية .

وعندئذ قال للجمع بلهجة أمرة :

- الطريق أمامكم . أنتم تعذبونها . كم من الوقت مضى عليكم فى  
هذه الوقفة ؟ حرام .. تعالوا ورائى إن شئتم .  
وحمل الطفلة على كتفه وسار بها نحو قسم الشرطة وهى تصرخ  
وهو لا يبالي . ونساء يلمن ورجال يقولون :  
- ماذا لو صبرنا قليلا . فأقسام الشرطة منظرها يخيف الكبار فما بالنا  
بالأطفال .

\*\*\*

كان الرجل يعبر حجرة الضابط والطفلة لا تزال تصرخ بأعلى  
صوتها :

- ماما .. ماما .. ماما ..

وفجأة أحس ان نداءها يلين وكأنها وجدت شيئا وفجأة أحس  
بامرأة تمسك يد الطفلة وهي تتعثر في ملاءتها ودخلوا جميعا إلى حجرة  
الضابط ..

قال بعض الناس وهم ينصرفون : قالوا ضاحكين ضارين كفا بكف :  
- لو تم هذا من أول الأمر لوفرنا دموعا كثيرة ..  
فرد آخر :

- كل منكم كان قادرا على حل المشكلة لو نسيتم «حلاوة الكلام» .

## اللقاء الوحيد

بين شارع الهرم فى القاهرة وشارع الكورنيش فى الإسكندرية  
ملامح كبيرة لكنها غامضة ، فالسائر فى كليهما يشعر بشيء  
غريب .. يشعر أنه مقسوم بالطول .

ونصفه المواجه للبحر فى الإسكندرية أو المواجه للحقول ناحية  
اليسار وهو متجه إلى الأهرام .. هذا النصف كأنه فى الظل .. كأنه  
معزول .. فى حين أن النصف الثانى يحس أنه فى مدينة لا تنام حتى  
الصباح .

وإذا سار أحد على الكورنيش وهو خمور ، أو سار فى شارع الهرم  
فإننى أعتقد أن الرؤى التى تراود عينيه أو خياله تكون رؤى مضاعفة ..  
فالأماكن التى تذكى الخيال فى الحالات العادية تلهبه وتشعله إذا ما  
كان الشخص خمورا .

لكن طالما لى للأستاذ زاهر - وهو حتى الآن يلد له - أن يسير فى  
شارع الهرم وهو خمور .

وهو ليس سكيراً ولا يمشى وهو سكران ، لكنه يشعر أن أعصابه  
وهو خمور تتحفه بأشياء لا تخصى ، تمنحه حقائق فوق الحقائق الحالية  
تماماً من أى ضباب مثل مرآة صقلت لتوها .

وعندما يعاود الحملكة فى هذه الحقائق العليا وهو فى حالته العادية ، قد  
يجدها فى العظمة التى رآها عليها من قبل ، وقد يحدث العكس ، لكن  
ذلك يكسبه لذة جديدة يدرك أن يد كل إنسان قد تسقط بواسطة شيء  
ما على « عدسة مكبرة » تجعل العين العادية من الأعين النجلاء

والخوراء والتي تحوى جمال الدنيا ، وقد يرى بنفس هذه العدسة الأنف الدقيق وكأنه أنف بعير أو أنف ناقة ..

لذلك فإن « الأستاذ زاهر » عندما يغادر أحد الأماكن التى يخرج منها متشيا ويستقل سيارة أجرة لابد أنه ينزل بعد اجتياز نفق الأهرام بمسافة غير قصيرة ، ثم يصرف السيارة ويأخذ طريقه إلى بيته الواقع فى مستعمرة بنتها الأوقاف من قديم بين مجموعة من الحدائق ، ولا يكون له من أرب إلا أن يقطع هذا الشارع الذى لا يعادله فى وحيه الليلى إلا شاطئ البحر فى الإسكندرية وفى شهر من شهور الربيع .

وهو الليلة كعادته سائر يفكر .. ليست الأنوار ساطعة ولا فى السماء قمر ، وعلى الجانب الأيسر وهو متجه إلى الهرم ظلام ممتد ممكن أن يمثل ظلمة البحر ، ونور من مصباح متوحد يومض مستحيا أو ربما خائفا .. ممكن أن يمثل مصباحا فى زورق صيد .. وهذه البيوت فى الظلام هناك كأنها « شباك » فيها أسماك حية وأسماك صيدت بطريقة الموت .

الوقت أواخر شتاء . وفى السماء سحاب أبيض . وغسلت وجه « الأستاذ » نسمة رطبة كأن فى يدها « بخاخة » فاستعذبها .. وهنا وقف مكانه على الرصيف الأيمن بعد أن ألقى نظرة شاعرية « مع بعده عن الشعر » على الكائنات الصامتة حوله .

وجد فيها كائنات كاملة مثل بعض البيوت والفيلات ، ووجد فيها كائنات ناقصة مثل تلك العمارة التى قام منها طابقان وبقيت هيكلا منسقوفا ليس فى أحشائه سوى الفقر والظلام . وكان الدور الثالث لا يزال بلا سقف . واشتد نشاط التسميم وزادت درجة الرطوبة وانخفضت

الحرارة ، شعر بذلك فجأة .. فنظر إلى الدور غير المسقوف وجعل يوازن بينه وبين الأدوار الأخرى ، وفجأة وجد نفسه يهمس :  
« السقف .. السقف .. آه .. السقف !! » .

« كنا قبل عصر الفضاء نتصور أن السماء سقف على الأرض ولكن ظهر أن الأرض غير مسقوفة » وضحك .. وهو واقف واستطرد : « يا للفجيعة !! هذا البيت الكبير الذى اسمه الأرض يظهر أنه بلا سقف .. آه .. القمر هو الذى خدعنا .. ظننا أنه معلق فى هذا السقف بمشبك إلهى كبير وله زر يشعل به ويطفأ .. فإذا بالأرض لا سقف لها !! » ..  
عندئذ رسته « البخاخة » من جديد فشهو ، ولم يسترد الشهقة ، فقد تذكر سقف بيته .. وضحك فى نفسه « إنه ظل لى ويدوسه الآخرون .. فأنا أعلق فيه النجف وأنظر إليه عندما أفكر بل وعندما أدعو الله .. هذا فى الوقت الذى يدوس عليه بالأحذية من هم فوقى » ..

ولم يسترد « الأستاذ » شهقته لأن شيئاً ليس فى حسابانه قد وقع .. حقيقة أن هناك سيارات تلتقط ناساً أو تروى بناس أو تنزوى بهم لكنه لم ير فى هذه الليلة أياً من هذا ، لم ير إلا الدور الذى لا سقف له .

وعندما شهق كانت أمامه امرأة .. وقفت فجأة ، لابد أنها خرجت من الظل .. ظل كشك الكهرباء هذا الواقف فى الظلام على مقربة منه كجسد مستطيل .

من الطبيعى أنه لم يصدق عينيه لكنه لم يكذب أنفه .. فهو ذو حساسية شديدة فى التقاط الروائح . فهنا رائحة عطر تفوح مزجتها

الحقول القريبة برائحة النبات . والليل مزج فى الرائحتين رائحته  
هو .. تلك التى يشمها كل البشر .. بل ويشمها الحيوان نفسه .. وضع  
رائحة الليل ندى وغموض وخيال لمستته شرارة .

\*\*\*\*

مر زمن لا يمكن قياسه .. لا يقال عنه طويل ولا عريض بل ممكن أن  
يقال عنه « عميق » . فالأستاذ زاهر ليس محروما ولا مكبوتا ولا فاقد  
رشده . لكنه فوجيء .. « والمفاجأة » توضع فى الحياة تجاه « المصادفة »  
تماما ، فإذا سلمنا بأن المصادفة تفعل ما لا يخطر على بال وجب أن  
نسلم أن المفاجأة تفعل ما لا يخطر على بال ..  
وتسلل صوتها هامسا واثقا مستحيا .  
- مساء الخير ؟!

وتحشرج صوت ملهوف مضطرب :  
- مساء . الس .. يا أفندم ..  
واستطردت تحكى كأنها فى بيتها :

- انظر .. ليس معى حقيبة ، خطفها شاب ودخل فنى هذا الشارع  
يجرى .. ظلام .. وجريت وراءه فأنكسر كعب الحذاء . انظر .. ها هو  
ذا ..

ووضعت كفا على كف فوق بطنها .. وظل الليل يبعث بالرائحة  
الممزوجة .. بالعطر والنبات والندى والغموض ..  
ولم يرد هو .. ولم تسر هى .. وأرسل كشاف سيارة - كأنه عن  
عمد - نورا على وجهها فأسبلت عينيها .. وفى ذلك النور تكشف سر

شبهها .. كانت نحيفة قصيرة متوسطة العمر . لها رجل أقصر من رجل  
وذلك من الحذاء المكسور الكعب .. وفكر هو «أليس من الممكن أن  
تأخذ سيارة أجرة إلى بيتها .. فى بيتها ينحل كل شيء ١٢ ممكن » .

لكنه لم يقل لها هذا لأنها هى شخصيا تعرف هذا .. وتحس جيبه  
وتساءل ماذا يفعل ؟ ولأول مرة يشم رائحة الخمر وكأنها فاحت منه  
.. ونظر إلى الدور الذى ينقصه السقف المبنى الجديد . وساد الشوارع  
ظلام لم يبدده مرور سيارة .. وفى لحظة مثل خطفة البرق أحس كأن يدا  
تنتزعه فتركها وسار وخيل إليه أن وراءه وقع خطوات عرجاء من امرأة  
إحدى فردتى حداثها مكسور الكعب . وبدأ الليل يسترد رائحته .

لكنه عندما ابتعد كثيرا نظر فإذا بها تلوذ بظلال كشك النور أو  
تتوارى فى ظلامه ..

وأخذ طريقه إلى بيته .. وعندما تاه فى ظلام حدائق مستعمرة  
الأوقاف كانت جميع النوافذ فى المساكن موصدة ومعظمها مغطى النور ...  
ولما أوى إلى فراشه ظل ينظر فى السقف .. رآه بديعا . كان فيه  
زخارف لأنه من أسقف وزارة الأوقاف . وكان فى الحجرة نور نحافت  
حوّل بعض الزخارف فى عينيه إلى صور غريبة .. فظهرت الزهرية  
المصبوبة بالمصيص فى أخذ أركان السقف .. ظهرت صورتها وكأنها  
امرأة تلبس حذاء مكسور الكعب نحيفة خفيفة كالريشة متقدمة فى  
العمر وهذا هو الذى آلمه .. وعاد فسأل نفسه : لكن لماذا لم يفعل شيئا ١٢  
وتنهذ ونظر إلى سقف حجرته وتذكر الطابق الذى رآه بلا سقف  
والمرأة التى رآها بين الحقول على طريق عام وكأن أمواج البحر تسعى  
إليها لتجرها إلى الأعماق .



ثم عاد فسأل : لماذا لم يفعل شيئا؟؟ وأجاب بحماسة من يدافع عن نفسه : « ما قيمة عمل يؤخر التعاسة ليلة واحدة » أو يعطى ليلة واحدة للتعيس وكأنها إجازة لتستأنف التعاسة بعدها عملها السرمدي ! » .

وحملق فى السقف فرأى البرواز الذى رسم على هيئة زهرية هو كما هو على هيئة زهرية ، واختفت تماما صورة المرأة وسمع وقع أقدام ثقيلة على السقف فوقه فتذكر أن سقفه أرض يلوسها ناس .

لماذا يشعر الآن بألم فى المفاصل .. والعينان ثقيلتان ؟! إنه نوم المخمورين !!

وفى الليالى التالية لم يتكرر المشهد . ولكنه كلما مر على كشك النور والعمارة التى ينقص السقف بعض طوابقها وقف وتأمل وهو يقول فى نفسه : « فى هذه المدينة أسماك كبيرة .. وأخرى صغيرة .. وطعم .. وزوارق صيد .. وناس فى الطرابق العليا يحملون وناس فى البدرومات لا يجدون حلما .. لكن .. آه » .

وضحك بعد التنهد وسأل نفسه : « ما هذا ؟! هل سأقول شعرا ؟! لا قدر الله » .



# القبسُ الخالدُ

( جوليت فوق سطح القمر )

فى الشارع الملتوى القليل النور المبنى على سفح الجبل ، والتمر  
بغالب السحاب والمصاييح تغالب الظلمة - كان سائرا يغالب هوى  
نفسه نحو البيت الذى يقصده . كل بيت فى موقع أعلى من البيت الذى  
قبله ، ورائحة البحر تملأ الأنوف وأشجار الحور مستسلمة للنسيم .  
ينقل خطاه ويتلفت .. إنه يعرف البيت بالوصف فى هذه المدينة الغريبة  
.. بيروت .. وهذا الحى المتبرج .. أنواره تلمع من وراء الشيش .. فى  
قلبه فضول وحزن وتمر صامت ، وأمام عينه الباحثة عن الباب خيال  
لشيتين لا يدرى علة وجودهما .. حصان حرون .. وثوب من القطنيفة  
أرجوانى أو أسود لا يتبينه فى الليل .

وانتهى صف الأشجار على يمينه وبدأ الشارع فى الارتفاع . يحس  
وهو صاعد فيه بضيق أنفاسه . أين القاهرة ذات الشوارع المستوية ؟  
وأدرك فى وهلة أنه أمام البيت المقصود كما وصفته له عندما لقيته فى  
الصباح فى أحد المقاهى على البحر وتجاذبا أطراف الحديث .  
بابه كأنه عين لقنطرة ماء فى استطالته وضيقه وإطاره المتماسك .  
والسلم يشغل المدخل كله يكاد الطويل يلمس برأسه السقف .

وقبل أن يلتوى نحو اليمين ونحو باب الشقة هناك مصباح متواضع  
يبدد الظلام . ورأى تشابها غير مقصود بين روح السلم ووعورة الجبل .

ومن نافذة إلى اليسار بدت رقعة من الأرض زرعت حديقة فيها أشجار تفاح ونباتات متسلقة أزهارها عند النافذة كنجوم فى الظلام . واستمر يصعد السلم وفى قرارة نفسه خوف . فهو لا يعرف حقيقة ما وراء هذا الباب .

وصل فى هذه اللحظة إلى حيث يقع الجرس . فتحسن الحائط وعينه تجوسان حوله فرأى امتداد السلم وهو يتلاشى واستشعر الخوف مرة أخرى . ثم تذكر المفكرة الصغيرة التى تركها فى الفندق على منضدة قريبة من الفراش . لترشد إلى مكانه عند احتمال الخطر . سمع رنين الجرس كأن يدا غير يده دقته اتصل به وقع حذاء عال يقطع الصالة وحركة مزلاج . وانتشر عطر وترحيب ولمعان ابتسامة فى النور الضئيل والمكان المحدود .  
- أهلا وسهلا .

جو الشقة يوحى بالوحدة وربما الملل والرخاء والمعقول فى اسلوب المعيشة .. فتجاه الكرسي الذى جلس عليه تمتد الصالة . فيها مكتبة وعدة كراسى ومنضدة عليها مجلات .

ووقعت عينه على الحديقة الخلفية عندما فرغت من فتح الشباك وهى ترحب بتلك اللهجة اللينة الكسول لهجة هذه البلاد وتنسحب عائدة إلى مكانها فى ثوب مسائى لا يخلو من الأناقة .

ومن خلال كلمات الترحيب عادت تقول :

- كنت مصممة على أن أتعرف عليك . كان ضروريا أن يقع هذا .  
فأنت تعرف أن الكلمة الأخيرة لنا ، للمرأة .  
وتضحكا .

وألقت برأسها إلى الوراء أثناء ضحكاتها فى حركة أبدت ما تحت جلد العنق قبل أن تعود غداثر الشعر الأسود المصبوغ فتحجب المنظر . غير أن الابتسامة كانت لا تزال باقية على زاويتي الفم - وشعر وكأنه لم يلاحظ ذلك من قبل - وكأنها امرأة غير التى رآها فى الصباح . لشد ما يغيرهن الليل !! وربما أفكارهن كذلك !! فكأنها الآن أخت لها أكبر سنا وتجربة . تسلمت بمعارف وخبرات أضافت إلى عمرها عمرا ، رأسها المفرطح وشعرها المفروق من وسطه يذكر بجناحي الطائر . إذا صمتت ثم بدأت تتكلم ند منها أنين لين كأنها تتخلص من شىء ثقيل . أنين يوحى بالحنان . لها صورة زيتية معلقة وقد أمسكت بشمعة منطفئة !! علقت بها نظرات الشاب ثم استردها ليلقيها عليها .. ولم تكن هذه أول حادثة فقد لفتت الصورة نظر ناس قبله .. فهمت أنه يلوك سؤالا . وكانت الصورة فوقها تماما فأسندت رأسها إلى الحائط كمن يتطلع إلى السماء لكى تتمكن من النظر إلى الصورة . وهلة بدا فيها طول عنقها وبرز صدرها إلى الأمام وسألت وهى تمضغ كلماتها :

- أعرف ما يلفت النظر فيها . أعرف ما يلفت النظر فيها ..

( وتحول صوتها إلى همس ) الشمعة نعم الشمعة !! .

واستعادت وضعها لتتأمل إليه .. فأخذ الجناحان الأسودان ينسدلان حول العنق . وند أنينها اللين كالعادة . ثم استأذنت ونهضت لتعود بصينية عليها قدحان من شراب الفراولة وضعتها على المنضدة القريبة .. وسألته فى اللحظة التى مالت فيها لتضع الأقداح ونظراتها غير متجهة إليه :

- هل تعرف معنى الشمعة ؟

فنقل بصره منها إلى صوتها وعاد يقول . كأنه اكتشف جديدا :  
- أنها منطفئة ..

فعدت تضحك .. بنفس قصير كطفلة تدغدغ تحت أبطيها فى  
اللحظة التى كانت فيها حيث كانت من قبل :

- نعم نعم .. ألم تلاحظ ذلك ؟ لكنى أسألك عن معنى  
ذلك !! ..

كان قدح الشراب فى طريقه إلى فمها وهى جالسة تحت الصورة  
كأصل غير مطابق .. ونسيت ابتسامتها الطفلية كأنما تلبستها روح  
جديدة .. ولعلها لم تشأ أن تعطيه مهلة للجواب فقالت بنفس اللهجة :  
- أنها ترمز للعمر .. للعمر !!

- آه !! فهمت !! .

- لعل ذلك يبدو غير واضح أحيانا .. لكن الفنان قصد هذا . انظر !! .  
وأسندت رأسها إلى الحائط وأخذت تتكلم .. واسترسلت كأنها  
نسيت ضيفها . كأنها تلقى درسا على أحد يجلس فى شرفة أو يطل من  
نافذة فى نفس الجدار .

- رسمنى وأنا ماشية .. خطواتى غير متمكنة على الطريق ..  
وكأننى .. أتحسس الطريق بقدمى .. لاحظ ... والقدمان حافيتان ..  
والنظرات إلى الأمام .. وتعبير الوجه .. نصف مأخوذ !! وفى الخلفية !!  
ألا ترى ؟!

وهج النار .. على نهاية الطريق .. رمز للروح الخالدة .. كما أن  
الشمعة المنطفئة رمز للعمر الذى لا يبد أن ينتهى .. هل عرفت

الآن ؟.. نمشى ونحن نحمل أعمارنا المنتهية نحو القبس الخالد فى نهاية الطريق !!

أحس طعم الفراولة على شفته حين لعقها بلسانه عقب انتهائها من كلامها واستعدادتها لوضعها . ورن جرس التليفون فطار إلى يده حتى كادت تصطدم بقطع الأثاث وهى تجتاز العقد المفتوح على هيئة قوس والمغطى بستارة خملية لتفصل حجرة الضيوف عن الحجرة الجاورة التى يسودها الظلام . وأخذت ترد بلهفة قلقة كأنها كانت بانتظار قادم .. وكلمات متناثرة تصل إلى سمع الضيف بلهجتها الإقليمية .. تتكلم .. تنفذ كلماتها من خلال الستار المخملى الذى لا يزال يهتز تفصل الكلمات إلى أذنيه وعينه على اللوحة . « كنت بانتظارك » .. « حتى يوم الثلاثاء ١٢ اثنان وسبعون ساعة ١٢ » .. « لا أحد عندي » .. « زجاجة دواء الأعصاب من لندن » ... « على شوق » . وسمع الرنة الأخيرة التى تؤذن بانقطاع الحديث . واستقر الستار المخملى كحائط متكسر يغطيه صمت .. ولم تعد السيدة نحاسن إلى الحجرة عند انتهاء الحديث .

ألقى نظرة على الحديقة من خلال الزجاج فرأى الأشجار سوداء فى حضن الليل وعلى البعد لمعت نوافذ واستنارت السماء بالإعلانات الملونة .. وعاد ينظر إلى الصورة .. ونحن من يكون الفنان ؟.. عليها إمضاء لرجل مجهول .. على الصورة والأصل !! وغيل إليه أنها واقفة خلف الستارة تتأمل من فرجتها بحيث ترى ولا ترى كما كان يتأمل الضيوف فى مكتب أبيه أو فى الصالون مع أمه .. وكان يحس لذلك



لذة فريدة .. خصوصا إذا كان الضيف وحيدا و بانتظار قادم والنفس على السجية حتى تبدو تعابير الوجه غير المراقب متصلة بقرارة النفس .  
وقبل أن يتفاقم شعوره بالقلق .. انفرجت الستارة عن قامتها ودخلت تعتذر .. وضحكت إذ لاحظ أنها فى ثوب غير الذى كانت ترتديه .. ولم تلبث أن ردت على السؤال الذى بدا فى عينيه .  
- كان لابد من فترة لتغيير ثوبى فقد سقطت خطأ زجاجة العصير فلوثته .. لا تقلق فنحن لم نتحدث بعد .. غير أنى فقط كنت منتظرة عودة أختى .. فتخلفت ..

- تقيم معك ١٢

- نعيم .. إنها تعمل مضييفة فى شركة الطيران وقد وصلت إلى المطار فوجدت عملا بانتظارها .. ستطير إلى لندن بسبب مرض بعض مضييفات وزواج بعض مضييفات .. آه .. ماذا كنا نقول ؟  
كفانا حديثا عن الصور .. فلنتحدث عنك . هل تقيم عندنا طويلا ١٢ .  
- ربما يوما أو يومين .

- نخسارة .. آه .. قلت لى فى الصباح إنك تكره مهنتك فلماذا

اخترتها إذن ١٢

- إننا أحيانا نجبر على أن نختار بين مكروه ومكروه وهذا هو ما

يحدث فى الزواج والمهن ١١.

وضحك وعضت شفتها ومزمت ثم بدا عليها التفكير :

- هذا صحيح .. صحيح جدا .. فأنا لم يعجبني الزواج وانت لم

تعجبك الصحافة .. ربما لأن الصحافة تتطلب نفاقا وربما لأن الزواج

يتطلب إخلاصا .

فسأل حائرا :

- ماذا أفهم ؟

- إن الاستقامة تبدو عليك .. لكن .. أليس معنى قبولك الدعوة بعد لقائنا العابر يعنى الميل فيكم إلى المغامرة كرجال أو كصحفيين ؟ ألا ترى ذلك حقا ؟.

فاحتضن ركبته بين يديه .. وأحس أنه فى حاجة إلى أن يتكلم .. إلى أن يترك كل تحفظه أمام هذه المرأة التى ربما كان غير مقدر أن يراها مرة أخرى .. لماذا يخاف ؟.

إن أفدح ما يثقل قلوبنا - ولو كان اعترافا - نلقى به إلى ناس نعرفهم . ربما فى مقصورة قطار أو تحت صداقة فى عمق الامتزاج بين اثنين خلقتهما كأس من الخمر بين رجل ورجل أو رجل وامرأة .

وعادته كلمات عمه « راغب » الذى طالما سمعها منه إذ يكون هو فى الريف أو يأتى عمه إلى القاهرة . فقد كان يقول باحتجاج ساخر كأنما يريد أن يخلص الابن من أخطاء أبيه :

- إنك تعيش فى جو معتم . جو يخنق من يريد الحياة .. عالمكم الخالى من الميكروبات فيه طهر يدعو إلى المرض .. وربما الجنون .

وهز رأسه وتنهد ونظر إليها من بين أهدابه يستشرف ما بداخلها .. وكانت هى ناظرة إليه .. فى عينيها حديث يريد أن يتدفق .. فيه جديد عما تكلموا فيه وقت الصباح .. بعيد عن السياسة والجو وصيف بيروت والإسكندرية واللهو فى جزر البحر الأبيض وعن

مركز أبيه كرجل من رجال الفكر يعرفه خاصة الناس .. كل ذلك  
خاضوا فيه وقت الصباح وهما فى المقهى على البحر خلف الزجاج  
المقفل فى وجه النسيم الأرعن .

أما الآن فكأنه يرى غيرها . خيل إليه وهو فى بيتها أنها تنتظر منه أن  
يدعوها لأى شىء . أن يطلب إليها أن تصنع فنجالا من الشاى أو أن تأخذ  
منه أو تناوله . تلك الحالة ذات الحساسية المشهورة والشفافية والخوف .  
التي يقف فيها الرجل والمرأة عند « ساعة الصفر » فلا تستطيع المرأة مهما  
أوتيت من قوة أن تقدم بعد ذلك قيد أنملة إلا إذا فعل الرجل .  
وأخذ منظرها الشجاع يتضاءل ويغيب . ليحل محله تراخى الأنوثة .  
ربما المهمومة أو المغلوبة أو المتهالكة للغاية .

- هل من الممكن أن نتعشى فى أحد مطاعم بيروت ؟!

وسألته بصوت خافت بعد أن زايلها أثر المفاجأة :

- متى ؟!

فتلثم حتى قال :

- الليلة !! .. فرمى أسافر دون أن أتمكن من لقائك .

- كان من الأفضل أن توجه إلى الدعوة - ما دامت الليلة - وأنا فى

غير بيتى . لكن .. من أجل بساطة مسلكك .. أقبل الدعوة .

وشعر بنجل وخوف وفرح . وربما بفيض من القوة أحس أنه اختار

وملك فرصة المبادأة . أما قبل هذه الدعوة فهو إما ضعيف وإما أسير .

وأخذ مرة أخرى يتأمل الصورة وحده . وهو واقف ويداه معقودتان

على صدره .. وكانت هى فى الداخل لترتدى ملابس الخروج .

وفاح عطرها فى الحجرة فى اللحظة التى يتأمل فيها الخدين البارزين  
فانتقل بصره من الصورة إلى الأصل فرأها فى « تيور » أسود من  
الصوف وفى يديها قفاز أبيض بدت أصابعها فيه ذات رشاقة لم تكن لها  
وقت العرى . وانتبه تماما وقت الخروج فلم يسمعها تكلم أحدا ولا  
تستأذن من أحد . وعندما وصلا إلى باب الشقة أدارت مفتاحا وأغلقتة .  
وسبقها ليقف عند النافذة المطلة على الحديقة . وكانت رائحة الأرض  
والتفاح ثملاً أنفه وبهجة الليل ثملاً العينين . وهبطت عدة درجات حتى  
وصلت إليه فتطفل عطرها على الرائحة السائدة وتكون مزيج من  
الروائح فيه الندى والخضرة والتفاح والعطر والمرأة فأحس للمدينة برائحة  
شخصية كرائحة جسم معين أو نفس إنسان .

وعندما وصلت إليه تحسست ظهره بكفها حتى وضعتها على كتفه  
ومالت عليه تهمس :

- هل بعجبك المنظر ؟

- ساحر !!

- هل يصلح طعاما للعشاء ؟ بنا !!

وقادته على السلم ودقات حذائها على الحجر ذات وقع باد فى  
سكون البيت . وكان يسمع أنفاسه . وهو ممسك بكفها الأخرى  
العارية من القفاز . وتلوى بهما الشارع وهمست لهما أشجار الحور  
وكان ركام من السحاب يزحف من ناحية البحر . بعضه جهم وبعضه  
شفاف . ولم يكن فى الطريق سابلة ، كانت الساعة تدنو من العاشرة  
وأكثر المتاجر فى الشارع الرئيسى قد أقفلت أبوابها .

واختارت المطعم والمكان والمائدة كامراة تعيش فى وطنها وحياتها النادل بابتسامة ألفة بدا فيها أنه يعرفها وأنها تتردد على هذا المكان . ثم بنظرة جانبية فحص بها الشاب . وبينما هما منهماكان فى قراءة قائمة الطعام عاد النادل ووضع أمامهما المشهيات وكوسا وخمرا ثم رجع بعد قليل بإحدى الجلات وصحف اليوم ووضعها إلى كرسى قريب منها فى احترام وعدم تكلف يدل على «التعود» .

ولم يستطع الشاب أن يفصح عن شىء من عاداته فقد كان لا يشرب إلا نادرا وبكيات ضئيلة . كان عليه أن يمهد السيل لكل رغبة لها مهما خالفت رغباته . وقام بمهمة المضيف على أحسن وجه . وبدت هى أكثر تألقا وحركة فى بساطة شابة ناضجة ولو أنها تخطو إلى الأربعين . فلم تكن مبالية أن تهمس بمقطع من أغنية على مقربة من أذنه بعد أن تفرغ من رشف جرعة وتمتزج أنفاسها بأنفاس الكحول .

تتكلم بصوت خفيض جدا وكلما تقدم بها السهر طفت الهموم على وجهها حتى تبدو وكأنها على وشك أن تشكو أو أن تتوسد ذراعيها على المائدة لتنام فقد كان وجهها من تلك الوجوه التى يخلع عليها الشراب قناعا ذليلا .

- عندما تشربين تبدو عليك الطيبة . فى الصباح على المقهى رأيت فيك امرأة تصلح لأن تكون مديرة دعاية لإحدى شركات السياحة أو التأمين ، فيك حذلقة وتكلف ، وفى البيت رأيت فيك امرأة ذات تجارب وخبرات .. أما الآن . فأنت مثل غريقة تستنجد فى صمت !!

وأخذ يدق حرف طبقها بطرف سكينه أما هي فقد كانت مستندة  
بكوعها على المائدة تفرك كفيها على مقربة من فمها فى حفتها وتنظر  
إليه بعينين متعبتين . ثم قالت :

- عليك أن توصلنى إلى البيت .

ولم تفتّر عن الكلام طوال الطريق . وهى متأبطة ذراعه تلقى بثقلها  
كله عليه . ولم توافق على أن تركب سيارة :  
- كم يلذ لى أن أتوه فى الليل . تعال غمشى .

ولم تكن فى واقع الأمر سائرة بالمعنى المضبوط فكانت تستوقفه عند  
بعض المنعطفات أو حيث تكون الظلمة أشد كثافة فى شارع ضيق  
لتنتهى ما كانت تقول . فلو رآهما أحد من الناس لظن أنهما سينهيان  
حديثا أو يضربان موعدا .

- لم تكن فى الصباح هكذا . كان لك وجه صارم . لكن . ابتسامة  
المرأة تذيب كل صلابة وتصنع من الصخر أجمل تمثال .

كان يتابع كلامها باهتمام وحذر ويضغط على ذراعيها أحيانا فتأوه .  
ويذكر عمه الذى يتحدث عن النساء دائما - كما يتحدث عن تاريخ  
ممتلكات أو مفاخر . وكأنا سرت إليه فى هذه اللحظة روح منه فهو  
الذى دفعه إلى التجربة الأولى عندما زارهم فى القاهرة واختلى به فى  
حجرته وجعل يتحدث إليه بطريقته الخالية من التحفظ : « إذا اردت أن  
تكشف كنوز شبابك فاعشق أرملة تكبرك فى العمر بكثير . لا تحرق  
نفسك بالخيال المزور فى حب بنات المدارس يا ولد .. هل فهمتم يا  
شبان آخر الزمان !

ومن خلال تلك الأفكار وثبت إحدى ضحكاتها القصيرة كسهم مضى ومضى فى الظلام . وتلوت وتأودت وهى تتأوه ونظرت فى السماء .

- هل تستطيع أن تقول لى كم عمرك بدون تزوير ؟

فقال صادقاً :

- ثلاثون عاماً .

فأخذت هى تردد الكلمتين كأنه تريد أن تحفظهما . أو أن تكشف فيهما عن سر . ثم قالت بلهجة مألها الجذ وأسى الذكري:  
- فى سن الثلاثين كنت أسعد امرأة . وقعت فجأة فى الحادث الجميل المخيف الذى تحسب حسابه كل أنثى .

هما فى هذه اللحظة عند مدخل الشارع المبنى على سفح الجبل حيث بدأ هو منذ أول الليل عن الحديث ريثما يدخلان البيت . وخلصت ذراعها من ذراعه وأخذت يصعدان الشارع . كانت أشجار الحور لا تزال تهمس والقمر لا وجود له ونوافذ البيوت مغلقة كأن سكانها أضناها المجهود . وبدأ لهما ذلك الباب الذى يشبه عيون القناطر فدخلا ووقفوا عند أولى درجات السلم . ظنت أنه سيودعها ويعود . فوضعت كفيها كل كف على كتف ورفعت وجهها إليها . لم يكن أمام الباب مصباح فلم يكن هناك إلا النور الساقط من أعلى حيث يتبدد قبل أن يصل إلى المدخل .. لكن ملامح الوجه كانت ظاهرة بشكل ما . وبينما كانت تلوك كلماتها لتنطق طوق خصرها وجذبها إليه فأحس به ينجذب فى لين . وبطراوة خالية من المقاومة كمن أضناه مجهود . وفى هذه اللحظة سقط رأسها على صدره واندفن فيه كما يفعل الرضيع .

فلم تسقط قبلته إلا على جيدها من الناحية اليمنى . ولم ترفع وجهها إليه بل أنت وهى كما هى :  
- إن وجهك خداع .

ولم يشم فى كلماتها رائحة احتجاج حقيقى . ولم يشأ أن يطول الموقف فأسندها وتحركا . وقفت تفتش عن المفتاح وقلبه يدق . وعندما دخلا انفجرت فى الصالة بضحكة محبوسة توحى بالظفر والخسارة فى وقت واحد مهزوزة مخمورة كالتى لم يبق لها ما تخاف عليه . ثم أمسكته من أطراف أصابعه وسحبته وسارت أمامه . عبرا العقد المألوف الذى أسدلت عليه الستارة ولمح الصورة بجانب عينه اليسرى وهو فى الطريق فخيّل إليه أنه هو الشمعة . وكانت تقول وهى تمشى :

- ليس عندى أحد . أنت ترى .. ليس فى المسكن سوانا !!

\*\*\*

وعندما استطاع أن يدرك محتويات حجرة النوم بعد مدة من الزمن رآها ذات طراز غربى يرجع إلى أوائل القرن العشرين وكان على مقربة من مرآة الزينة تحف صغيرة . وعربة لطفل ١ غريبة فى المكان كأنها فى ملجأ عجائز !!

وأخذ الضباب ينقشع عن المكان والزمان والروح . كانت فى قميص يضرب إلى السواد كجنينة وهى جالسة تمشط شعرها السلس الأسود المصبوغ تسأل فى ابتسامة خائفة عما إذا كان سيحمل لها ذكريات  
باقية ١٢



كانت الجدية بادية فى سؤالها فسرته أن تنطبع آثاره على هذه الصفحة المهترزة . وأجابها وعيناه عالقتان بعربة الطفل :

- المسألة مسألة قدرة . فإذا كان ما حدث بيننا الليلة قادرا على البقاء فليس هناك ما يدعو للسؤال . سيلمس كل منا الطريق نحو صاحبه ناسيا كل مشقة .

وصمت ثم قال :

- هل لهذه العربة ذكريات معينة ؟

فأجابت وقد رفعت وجهها نحو السقف :

- كل ما تحتفظ به فى حياتنا وظيفه .. ضرورى .. عربة لطفل أصبح رجلا . إنه ابنى . . إنه فى القاهرة يشغل وظيفة ربما حدثتك عنها . لكن ليس هذا هو المهم . المهم هو اللحظة التى تقابلنا فيها ساعة رأيتنى على المقهى . هل عندك فكرة عن الثمرة التى تسقط توا على الحشائش لعوامل كثيرة وعن مدى صلاحيتها للأكل ؟ كنت فى الصباح فى مثل هذه الحالة . ( وضحكت ثم همست فى حجرها ) كنت ساقطة لتوى !!

ولم يتكلم بشيء . كانت أفكاره تتضارب . كيف تدعى أنها لا تزال فى بداية الطريق هذه ؟ .. ذلك محال . ونظر فجأة فى ساعة معصمة ليعرف الوقت بحركة لا تعنى إلا الخروج من الموقف الجامد . فرفعت إليه بصرها . كان فى عينيها بؤادر وعلى شفيتها بؤادر ضحكة . كأنما انبعث المذنب والمؤدب فى نفسها فى شوط واحد .

- كنت أودعه على الميناء . كان ذلك للمرة الأخيرة . هل تستطيع

أن تفهمنى لماذا تنمسك أحيانا بمن يتلف علينا حياتنا ؟

- هل هو هذا الذى رسم لك اللوحة ؟

قالت بهدوء من يلقي أحد التقارير وقد فتحت عينيها :

— إنكم تمتازون بالذكاء يا أهل مصر .

— رأيت نياته على اللوحة . ليس على وجهك . فى الصورة روحانية

من يبحث عن مقلد .. بل على الوجه مسحة من فراغ المأخوذين

كأنك منومة . وعلى كل فهل لى أن أسمع شيئاً جديداً ؟ فإنه يجب أن

أبيت فى الفندق على كل حال .

— ذلك مناسب لى تماماً فأنا لا أحب أن تبيت هنا . كما أنى أرجو

ألا تكون هذه هى الصورة النهائية لشخصيتى . ثم قل لى : هل من

الأفضل أن تسلو المرأة عن حبها بحب جديد أو أن يكون القديم نفسه

عذاها وسلوانا .. سما وترياقاً ؟! هذا إذا ما سلمنا بأن الحب دخل القلب

وانتهى . هذه لحظة من قصته . قصة ذلك الرجل المتوسط العريض

الكتفين الذى لوحث الشمس وجهه الفذ . ودعته صباح اليوم للمرة

الأخيرة لأنه لن يعود ثانياً إلى هنا . أنه يموت إلى وطنى بصلة النسب ،

فأمه إحدى فتيات المهجر وقد تزوجت فى أمريكا ،

وأحبته .. اختلطت فيه الملامح العربية بلامح تلك البلاد لكنه احتفظ

بالحرارة الأولى لعرقه الأصلى . كان يباهى بأمه السمراء ولذلك كان

يحب الشمس . دعاه زوجى صاحب أحد مكاتب التصدير والاستيراد

لكى يتناول عندنا العشاء ولم يشأ أن يصف لى الشخصية قبل أن

أراها . لكننى أحسست أنه متحمس لصدافته بطريقة نسبت إليها المبالغة .

وحين رأيت قبطان المركب التجارى هذا وهو يدخل عتبة بيتنا هناك —

أحسست بالحنق على زوجى . نفس الحنق الذى ربما أحسسته لو أنه

دعا امرأة أكثر منى جمالا . لا فرق بين رجل متفوق على الزوج وامرأة

متفوقة على الزوجة ، فكلا الاثنين يحمل خطرا واحدا على حياتهما المشتركة .. كشيء طارئ على الميزان الساكن فى تعادل وسيجعله يهتز .

رأيت على أنفه الصغير المقطوط ترفعا أعجبني . كان شاخا به إلى أعلى كأنما جاءت هذه العادة من نظره إلى السماء بصفته من رجال البحر . ولم أحس بصغر كفى إلا عندما وضعتها فى كفه .. وهل أنت من الذين يشعرون بالغيرة عندما تذكر أمامهم مزايا الغير ؟ .. إن عدم المبالاة التى تبديها لن تنطلى على .. لا تقل هذا . لست ( محلا ) فى قصة غرام فلا تجعلنى أقطع حديثى . إنك كما قلت لك بلا خوف .. وجدت ثمرة سقطت على الحشائش . هكذا كنت عندما عدت من الميناء وودعته . وكان لابد أن أفعل شيئا . فجلست على المقهى أتصفح الوجوه . وخيدة على المنضدة التى طالما تقاسمناها . حتى رأيتك .. إنكم أذكاء يا أهل مصر .. نعم . ومائدة العشاء فى نفس المطعم كما تقول طالما تقاسمناها معا . آسفة . لقد أتلفت عليك نشوة ربما كتب لها عمر أطول من هذا . لكننى .. وأدتها .. نعم وأدتها كما تقول . هذا أحسن تعبير .. آوه .. أف . وهل بعد ما تند المرأة أعز ذكرياتها يبقى فى قلبها خوف . إن زوجى هو الذى فعل كل هذا . ليس فى صلابة المقاومة ؟ لا . بل لكل معركة ميزانها .. هذا ليس مهما الآن فقد أنهيت القصة . نعم منذ ليلة العشاء الأولى أحسبت أن شيئا شدى إلى .

استعدت أساطير الجنيات التى أحبت البحارة . كنت أجلس على المقهى وأحملق فى الماء بعد سفره وأذكر ضحكاته المتتابعة . يأكل

ويحكى .. ما كنا نشيع أكلا ولا حديثا . لغته وعيناه  
عريتان .. يحمل لأمه ذكريات فيها سر غامض جعلتني أحبه أكثر . هو  
كما تقول . لا أدري فلو قال لى إنه يجب أباه أكثر من أمه لربما اختلف  
الأمر .

قمنا برحلة مثيرة ذات يوم فى الليلة الثانية لوصوله إلى بيروت وبجئنا  
فيها عن الحارة التى سكنتها أمه أيام كانت بنت عشر سنين وقبل أن  
تهاجر . وأخذنا نتخبط أنا وهو فى أماكن لم أرها من قبل . أحسنا  
معا أننا نائهان . ويوم ذلك منحنى ذلك الإحساس شعورا بأننى لست  
من بيروت . وعندما كان شىء من الخوف يبدو فى عيني كان يضغط  
على كفى .. فيذهب الخوف !! وكان الحى الذى ولدت فيه أمه قد  
تغير وأعادت البلدية تخطيط المكان لكننا عثرنا بطريق الصدفة على أحد  
الآثار القديمة مبنى أشبه بالخان فيه ( سبيل ) لماء الشرب وقد اندثر  
وبقيت عليه النقوش . وهلل صديقى كأنما رأى مهد أمه . وعرف  
الشارع . كان بيتها يطل على هذا المكان بآثاره القديمة . فوقف وعيناه  
تلمعان ينقل بصره بينى وبين السماء والخان والفضاء كأنه يفتش عن  
البيت . وبعد عودتنا من هذه الرحلة أحسست أن شيئا ينبض فى داخلنى .  
« جنين إلهى ليس له أب .. شىء من روح الله » هذا هو ما قاله لى  
ونحن نقطع آخر خطواتنا إلى مكتب زوجى .. ودخلنا معا . ورأيناه  
غارقا فى المحادثات والصفقات وحوله السماسرة وبعض المهرين ..

وخلال زيارته المتعاقبة لبيروت لم يتعد الأمر بينهما تلك المتعة الروحية المشوبة بالانتظار . وأحيانا يجسدها خيال مشبوب فيه إحساس بأن هناك أشياء من الممكن أن تقع . كانت تحس طعمها وهي فى نافذة حجرتها حين يحمل إليها الهواء الصفير الجوف العميق لإحدى البواخر . ويهتز قلبها لذلك الصوت فكأنه موكل بأن يحرس ذكراه .

لم تكن عرفت الحب بمعناه الفائر .. لم تكن طعمت به ولا حصنت منه شأنها شأن الشاب الذى معها الآن فى حجرة نومها فى موقفه من الخمر أما هى فقد شربت لأنها تعودت . وكان زوجها يتلقى الهدايا منها عن طريق المراكب التجارية التى تمر بالميناء . وليس من الضروري أن يكون فيها هو .. فقد كان له أصدقاء بالطبع .

و ذات مساء دخل عليها زوجها وهو واجم .. يحمل نبأ نزول صديقه .. صديقها .. وهو فى حالة إعياء شديد خطر استدعت نقله إلى المستشفى . وطبيعى أن يسافر المركب ليتم رحلته إلى الهند وعند عودته من بيروت سيكون هو قد استرد عافيته .

- ليت هذا لم يحدث . لو أن قصة علاقتنا خلت من حادثة مرضه لتغير كثير من الفصول .

وسكنت قليلا وكأنما أدركها الأسى لأنها قصتها على أحد . ثم لمعت عينها . وكأنما سألت وأجابت : وماذا فى هذا ؟! لا شيء مطلقا !! أعجبها فيها أنه يكتم ألمه . لم يزعمه بتاتا أن الأطباء انزعجوا عليه : « التهاب بريتونى ؟! ذلك لا يخيفنى يا حبيبتى فلا فرق بين أن يهددنا الموت من داخل أجسامنا أو من خارجها .. لا فرق .

وكانت حاله قد تحسنت شيئاً ما حين نطق بهذه العبارات . ثم نسي المرض . تفوقت قوة الإرادة ز فأخذ يحكى لها عن مناظر الصراع التى طالما رآها فى الظلام .. فى لجة البحر . قصص الموت التى مرت بها السفينة .. القروش والحيتان . والصراخ الغامض من حناجر غير بشرية ينتمى إلى الألم أو اللذة .. كان يأتى من لجة البحر والليل أخرس . وقصة النوتية الثلاثة الذين كنتهم العاصفة ذات ليلة .

وأشارت إلى قطعة من المحار النادر موضوعه على مقربة من مرآة الزينة كانت ألوان الطيف مسكوبة على حافتها . كتب عليها بقلمه يوم أحضرها لها بيتا لشاعر مهجرى ينضح شطره الأول بالحب وشطره الثانى بالخنين إلى الوطن . قرأته .. حفظته .. ثم قبلته على المحارة حتى تلاشت الحروف وبقيت هى كعنوان يدل على كل ما فات . وعلقت عينا ضيفها بالمحارة . قام إليها وهى تتكلم حتى صار صوتها يأتى من الخلف كأنه منبعث من ( جرامفون ) .

ووقف هو يتأمل بقية الأشياء أمامه .. أما هى فكانت مستلقية على ظهرها فى تعب مسيلة العينين كأن هذا الشاب مفتاح (مولف ) لباب قد ضاع مفتاحه . ومن خلال هذا الباب الذى انفتح دلفت هى إلى عالمها من جديد .

- لم أكن أشعر بالخوف وهو يحكى لى هذه الحكايات . شعرت أنه عالم ملئ بالسحر والموت فيه قوة لا ترهب : مثل عالم «ديدمونة» الذى رسمه لها « عطيل » . تعال هنا .. أعد المحارة إلى مكانها . وهذه الزهرية الخزفية من بلاد الصين . اشتراها لى ابنى من القاهرة . أوحشتك إلى هذا الحد !؟ آه .. إنها جديرة بكل حب . « قلب لم يخفق من أجلنا » .

دع فضول الصحفيين . فإن ثرثرتى لم تدع لفضولك مكانا . هذا النوع من الخنزف يبيعه دكان عندكم فى شارع لا أعرف اسمه ( وانتفضت ) . هل سمعت دقائق الساعة ؟!

وعندئذ قال كمن أفاق من حلم :

— يجب أن أعود إلى الفندق . إنها الثانية صباحا . آمل أن أراك غدا .

وانقفل الباب وراءه فى صمت بعد أن قبلته عنده قبله خرساء قبله طويلة قلقه كأنها تلخيص لما فات . وبدا السلم له فى ذلك الوقت كأنه عالم غريب بذكرياته وروائحه وظلمته . والباب .. ينقصه نوع من دخان التبغ ليثول فى خياله إلى كهف وسكارى . وألقى على البيت نظرة ثم ولاه ظهره . وبدا الشارع ينحدر به ونسيم آخر الليل وهسهسة الحور ووقع أقدامه . وقمر ضائع وصغير يأتى من الميناء يتردد صداه فى الصدر كأنه روح ذلك البحار جاءت محتجة . تزرع الحب فى كل أرض وتسقيه بمهارة لا تخلو من التزييف وتذكر زوجها .. إنه هجرها تماما وهو الذى عرفها به . وابنها يعيش بعيدا عنها ولو أنه يحبها فقد اكتشف بطريقة ما أن أخطاء أمه أخف من خسة أبيه . وأن الأب دبر هذه المكيدة لزوجته لأنه كان يريد أن يتخلص منها لأنها مسيحية ولا طلاق .

ثم . ظل يسأل نفسه هذا السؤال ويردد باحثا عن إجابة وفى ضميره ذلك الشيء « الذى يجعلنا نختار قاضينا » لنصدر الحكم الذى يرضينا فلم يستطع أن يفترض أنه مكانها بالضبط . ولا أن يشعر بأن الحب يولد بين رجل وامرأة عدة مرات . ما دام الإثم والتوبة هما القدمان اللتان تمشي عليهما القصة بينهما . نعم !!





فَرَّاشُ الْأَوْهَامِ

بعد عشاء فاخر آخر السهرة .. بات الملك مهموما . نام ملئء المعدة  
بالطعام .. وقلبه ملئء بالخوف .

وفى حجرة المخدع الواسعة كانت الشموع ساهرة مطرقة الذهب :  
رءوسها أسنة ملوية : وفى الأركان المظلمة التى عجز النور عن الوصول  
إليها . كان يرى أشباحا صفراء تتكاثر وتتوالد وتصخب . وتجرى فى  
غير اتجاه .. أو كل اتجاه .. وأحيانا تقف بغير نظام وترفع رجلا وتضع  
رجلا على التوالى .. مشية الوقوف أو وقوف المشى « خلك سر » .  
نهض من فراشه ونقل بيده بعض الشموع إلى أماكن الظلمة . أنه لا  
يريد أن يرى هذا المنظر قط ، نعم .. يود أن توافيه المنية قبل أن يراه  
بعين الحقيقة فما هو الآن إلا خيال .. أشباح فى خدع رجل خائف .  
لكنه بعد أن تمدد فى سريره ما لبث أن انتقل إلى الركن الذى خفت فيه  
النور . بل وزاد شئء جديد .. فهناك نساء يلدن وهن سائرات فى  
الموكب ويحملن المواليد ويلوحن بهم فيصرخون . أفواه بلا أسنان ،  
وأعين مغمضة ، لكن تعبير المطالب مرسوم على زوايا الأفواه الباكية .  
وعاد يسمع أصواتا . كأن امرأة تتقدم الحشود . وترمى طفلها تحت  
قدميها وتهتف فى الناس : « إلى قصر الملك » !!

فتفتح الملك عينيه . أنه لم ينام بعد ووضع يده على جبينه يتحسس  
الحمى لكنه بخير . ليس به إلا خيال ، الجموح فاض كما يفيض النهر  
فيحمل الجثث وجذوع الأشجار ويجرى ..

على كل حال تذكر الآن أنه قضى أيامه الماضية مهموما .. رماه القدر برجل ثقيل الحديد وجهه مجمد كجلد التمساح وعيناه مستديرتان بلا أهداب . فرأى الملك فيهما عيني ثعبان . وكان هناك ساعة حديثة .. شيء يدق على بعد ، صوته مثل صدى الطبل ، ما إن يقترب حتى يبتعد على التوالى .. ورائحة ( المعدة ) تفوح من أنفاس الرجل كلما تكلم المريض أو الجائع .

ورفع ذراعين طويلتين معروفتين كذراعى أخطبوط وأخذ يشرح كيف أن المياه هبط منسوبها في الآبار ، وأن السماء لم تمطر ولا تبشر بالمطر . وقبائل الرعاة في المملكة يرحلون من مكان إلى مكان ويقفون فوق قمم الجبال وينادون السماء ..

ودخل عليهم أحد الخلصاء وأقنم الحديث :

— سمعت اليوم حكاية تفوق الأساطير يا مولاي !!

كانت اللهجة غريبة بلغت من الإتقان ورنه التشويق ما جعل الوجه كلها تستدير إلى المتحدث . ورأى الملك على وجهه صفيه علامات يعرفها مثل خلجات « ماسونية » يتدرب عليها مثلهم . وتوقف المتحدث الأول حين رأى الملك يتجه باهتمامه إلى صديقه .

— انها حكاية تفوق الأساطير يا مولاي :

« شاب وفئة من أحد النجوع أحب كل منهما الآخر . والزواج على الحب في بادية مملكتك لا يزال محالا .. ليس من المحتم طبعاً أن الزواج هو الكره فالعكس ليس صحيحاً على الدوام . لكنه يجب في عرف مملكتك ألا يتزوجوا على حب . لكن الحب يقع يا مولاي على الرغم من القلوب . فالقلب في الحب يوافق ويتعذب . وأخذ الدا

الحبيبين يضيقان عليهما فلم يوفقا فعمدا إلى التعذيب . كل يعذب من يخنسه . وعندئذ التقى الحبيبان وقررا قرارا . قالا : ما دام الأمر عذابا فى عذاب فلم لا نتعذب بما نريده نحن ؟! هلم نهرب . وفعلا . لم يكن معهما زاد ولا ماء . وضربا فى البادية كلما عطشا تبادلا القبلات .. كلما جاعا تبادلا الأحضان . واستمرا فى السير حتى انقضى اليوم ، وتعبا ، وأدركهما الليل ، وكان عليهما أن يناما فى مكان مأمون ، لا يصل إليه وحش ولا مطارد .

وعلى بقية من نور الشفق وحدا بثر جافة ، فقررا أن يناما فى قاعها . وكان كل منهما خائفا يكتم الخوف عن نفسه . وعن حبيبه بالطبع ، وكانا يعلمان أن الموت المؤكد هو آخر الرحلة ، لكنهما .. ظل كل منهما يقبل من جسم الآخر ، مواضع الجروح التى تركها التعذيب ، حتى تقدمت خطا الليل . ولفهما نوم ثقيل . الأيام قد مضت والحبيبان لا يشعران بوجودهما . وهما حتى الآن فى نفس هذه الحالة . فمجرد ما اضطجع الحب فى قاع البثر الجافة نزل بالماء ، وأخذ منسوبه يرتفع بسرعة قطعت عليهما سبيل النجاة ، ماتا فى القاع وفاض الماء وبدأ أهلهم يزرعون النخيل والتين على الحوافى ، فى البقعة السعيدة .. أسمعت يا مولاي ؟! » .

هز الملك رأسه وقال : هذا مؤكد ، هذا ممكن للغاية . هذا معقول جدا . ثم وجه الكلام نحو المتحدث الأول :

- لكن .. لماذا إذن تقول : أن المياه قد جفت فى الآبار ؟!

فتحير الرجل ونظر بعينه المستديرتين إلى أمين الملك فرأى على شفثيه خيال الدهاء . لكنه صمم على أن يستمر فقال للملك :

- لقد سمعت هذه الحكاية أنا الآخر ..

ضحك أمين الملك حتى كاد يستلقى على قفاه ، وعض الملك على نواجذه . وبعد أن ملأ الصمت القاعة من جديد ، وانتهت الأبصار تطلب تفسيراً من الناصح الأول ، قال للملك مكمل حديثه :

- هذه الحكاية ملك كل العالم . حدثت في كل مكان ولم تحدث في أى مكان ، ليس أبطالها من الفياثى المغطاة بالرمال فحسب ، بل من الفياثى التى يغطيها الجليد أو تكسوها الغابات . وفى ( الفياثى أيضا ) التى تنهض فيها القصور وناطحات السحاب . إن أمينك أيها الملك قال صدقا ، لكن بقعة من الكذب دائما تسقط فى مكان خفى على الصندوق الموجه للملوك . وعلى حساب هذه البقعة تكون السعادة .

وسكت وتنحنح وأطرق . سمع خفق قلبه . لكنه أدرك أن التراجع مهين للملك . فأكمل :

- الأكاذيب نبذ جيد . خصوصا إذا ما عتقت فى قبو مظلم .  
والذى روى هذه الحكاية يا مولاي ، لم يذكر شيئا عن جثتى الحبيبين لأنه يريد عنصرا غير ذلك . ذكر الخضرة والنخل والتين والحياة التى خلقت من ( نبتة صغيرة ) هى الحب الذى آوى إلى قاع البئر لاجئا من مطاردة البغضاء .

وأخذ الناصح بمسح عرقه . فقال له الملك :  
- أحسنت .

لكن أمين الملك هز رأسه فى صمت . ونظر إلى الناصح نظرة لا لغة لها ، وبات الملك طوال الليل يحلم بوجهه الكئيب وجلده الأسمر الجعد وعينيه المستديرتين المجردتين من الأهداب .

ولما دخل المساء التالى دخل أمين الملك على الملك مختالا وكان الناصح حاضرا بجلسته ، ثم نظر إلى الناصح نظرة جديدة لكنها لا لغة لها .. ومال إلى الملك يهمس له . وطال الهمس ، وكلما استطال أشرق وجه الملك بالابتسام والرضا والسكينة . يهز رأسه مؤمنا ممتنا موافقا فى آن واحد .

وأخيرا . قال الأمين بصوت عال نوعا :

- أجل .. أجل .. دعهم يدخلوا .

وتعلقت الأبصار بالباب فدخل عديد من الأعراب فى ثياب بدوية أعمارهم مختلفة . بعضهم يبدو ضاحك العين وبعضهم يبدو ضاحك الفم .

وأمرهم الملك بالتقدم فحيوا بالركوع . ثم اتخذ كل فريق منهم ناحية ، فكان عدد منهم إلى اليمين وعدد منهم إلى الشمال ، وقال الفريق الأول : نحن يا مولاي أهل الفتى . وقال الفريق الثانى : ونحن يا مولاي أهل الفتاة . ثم قال الفريقان فى نفس واحد . ونحن نشهد الله على أن هذه الحادثة قد وقعت وأننا نزرع على فيض كثير من ماء هذه البئر .

فسأل الملك :

- وهل وجدتم الجثتين ؟

قالوا :

- نعم ، ودفناهما تحت أشجار التين .

- فى الأماكن الظليلة يدفن المتحابون وفى هجير الصحراء يشوى المتباغضون ... اليس كذلك يا سادة ؟

أجابوا جميعا :

— صدقت يا مولانا !!

لكن الناصح كان يشهق وظل يشهق حتى أخذته الفواق ، لأنه أدرك التناقض بين الوقائع . وألجم فسكت . لكن الملك فاجأ المجموع بضحكة سخرية ، وقال لهم :

— إذا كان الحبيبان سببا في وجود أشجار التين فكيف دفنا في ظله . أخطأتم في ترتيب الوقائع .. فقد ماتا في المهجير وظلل التين المكان بعد موتهما بسنوات .. آه .. أيها الأمين .. الأكاذيب نبذ جيد حقا .. خصوصا إذا ما عتقت في قبو مظلم .

وسكت .. وتعلقت الأنفاس وجلا ، لكنه ما لبث أن قال لأصحاب العيون التي تدور في شاحرها كزئبق :

— لكن لا بأس .. ما دمنا محتاجين إلى التبيذ فلا بد أن نشرب المغشوش .. ألين فراش ما حشى بأضعف زغب .. وهكذا ننام على الأوهام .

ثم صرخ ..

— انصرفوا ..

فلم يبق في القاعة أحد .

\*\*\*

.. وبات الملك تلك الليلة المخيفة .. ليلة رأى المجموع ... ونقل الشموع من مكان إلى مكان .

وكان قد أحصى مقتنياته الشخصية من الأغذية ، واطمأن إلى أن ما عنده منها يكفيه عدة أعوام . وحتى النبيذ عرف عدد زجاجاته . وعمل حساب حراس الأغذية . وأن يكونوا فى شبع ، وإلا وحدهم الجوع ضد المخازن ..

غير أن هذه الليلة كانت للملك ، مثل ( أستاذ ) . علمته وتركته يفكر .. فمَنَظَرُ المواليد فى أيدي الأمهات وهى يعبرن عن المطالب بالصراخ جعل الملك يصمم على أمر .

ولما تنفس الصبح الصعداء .. واستدعى رجال ( العسس ) وأمرهم أمرا صريحا قاطعا . قال لهم :

- انتم مكلفون بإحضار أصلح رجل أو امرأة فى مملكتى ليستشارا فى امر نقصان الزرع وهلاك الضرع ، وإلا فسترفعون إلى السماء على صليبان من الخشب .



## الفهرس

صفحة	
٣	حصاد ليلة
١٣	القلنسوة الصغيرة
٢١	البرج المائل
٣٣	أذيال العروس
٤٧	سأعود
٥٧	جوليت فوق سطح القمر
٦٧	حارس الحياة
٧٩	أزيز
٨٧	الزبدة و الحرية
٩٧	مزمار الراعى
١٠٧	ضيف نصف الليل
١١٧	بعد الصباح الباكر
١٢٧	الثمرة الحلوة
١٣٥	حراس على الزمن
١٤٥	لكل شئ أوان
١٥٣	ضياع وأمل
١٦١	اللقاء الوحيد
١٦٩	القبس الخالد
١٩١	فراش الأوهام

رقم الإبداع : ٥١٥٩

التقييم الدولي 6 - 315 - 316 - 977



مكتبة مصر  
٣ شارع كامل مكتبي - النجيلة

36



المن ٣٧٥ قرصا

دار مصر للطباعة  
معد جودة السحار وفركاه